

العدد السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السنة الثانية

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْتَلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع المنيل

بالروضة بالقاهرة

تليفون : ٢٤٤٥٥

مايو سنة ١٩٥٣

رمضان سنة ١٣٧٢

هَذَا الْقُرْآنُ

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

حكم الإسلام والأقليات :

قال القائلون : كيف تطبقون قواعد الإسلام في بلد فيه مسيحيون ويهود ، وفيه أجانب ؟ ولم يبنظروا جوابا ، وحكموا بأن في ذلك إحراجا للأقليات ، وإحراجا للأجانب . ومن ثم فقد حكموا بأن الإسلام غير صالح لأن يحكم الناس في هذا العصر . ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام لم يترك للأقليات قضية تتردد على مر السنين وبين أطواء القرون ، ولم يجعل لهم شيئا يشكون منه ، بل حسم الأمر وفض القضية وانتهت من منذ أربعة عشر قرنا ، وصارت في حيز النسيان . . . والذين يشيرون هذه القضية لا يجدون لها موضوعا ، وإنما يشيرونها كوهم من الأوهام .

ذلك أن القرآن أباح حرية العقيدة وحماها « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « قال يا قوم أرايتم إن

العدد السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السنة الثانية

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْتَلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
نصدر مع غرة كل شهر عربي
ستها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سمير رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع المنيل

بالروضة بالقاهرة

تليفون : ٢٤٤٥٥

مايو سنة ١٩٥٣

رمضان سنة ١٣٧٢

هَذَا الْقُرْآنُ

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

لفضيلة الأستاذ حسين الهضيبي

الارشاد العام للاخوان المسلمين

حكم الإسلام والأقليات :

قال القائلون : كيف تطبقون قواعد الإسلام في بلد فيه مسيحيون ويهود ، وفيه أجناب ؟ ولم يبنظروا جوابا ، وحكموا بأن في ذلك إخراجا للأقليات ، وإخراجا للأجانب . ومن ثم فقد حكموا بأن الإسلام غير صالح لأن يحكم الناس في هذا العصر . ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام لم يترك للأقليات قضية تتردد على مر السنين وبين أطواء القرون ، ولم يجعل لهم شيئا يشكون منه ، بل حسم الأمر وفض القضية وانتهت من منذ أربعة عشر قرنا ، وصارت في حيز النسيان . . . والذين يشيرون هذه القضية لا يجدون لها موضوعا ، وإنما يشيرونها كوهم من الأوهام .

ذلك أن القرآن أباح حرية العقيدة وحماها « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، « أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « قال يا قوم أرايتم إن

كنت على بينة من ربي . وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون .

وما حاجة الله إلى أن نذكره أحداً على اعتناق الإسلام إذا كان الله ينظر إلى قلوب الناس لا إلى صورهم ولا إلى ما يقولون دون ما يعتقدون .

ولم يحصل أن أكره أحد من غير المسلمين على اتخاذ الإسلام ديناً في جميع عصور التاريخ الإسلامي .

وأباح حرية العبادة ؛ فلغير المسلمين أن يقيموا معابدهم كيفما شاءوا وأن يعبدوا الله فيها من غير حرج عليهم في ذلك « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » وكثيراً ما حصل أن بنت الدولة الإسلامية الكنائس للمسيحيين يؤدون فيها شعائر دينهم . ولا يزال المسيحيون واليهود يتمتعون بهذه الحرية إلى اليوم ، لا يستطيع مسلم أن يحرمهم منها . لأنه إن فعل يكون عاصياً لله سبحانه وتعالى غير مطيع لأمره ، والمسلمون إذ يبيحون حرية العقيدة وحرية العبادة لا يفضلون على أحد بذلك وإنما يفعلونه عبادة لله تعالى وقربى له دون أن يملكو له منعاً .

وفي أحوالهم الشخصية فإن الأوليات تطبق قواعد دينهم ، تحكم في ذلك محاكمهم — فالزواج — والطلاق — والنفقة — والعدة — والرضاعة — والنسب والميراث — والوصية — والهبة : كل ذلك وغيره مما يدخل في هذا الباب قد أمرنا فيه بتركهم وما يدينون — لا يتعرض لهم أحد في ذلك — .

وكل ما يصح لنا أن نفعله هو أن نهيب لهم محاكمهم ، ونهيب لهم طرق السير في قضاياهم إذا هم طلبوا ذلك . أما الموضوع فلا شأن لأحد فيه لأنه دين محض ليس علينا أن نقول لهم أخطأتم فيه أو أصبتم .

فإذا جاءوا إلينا طائعين مختارين حكمنا بينهم بما أنزل الله ، وقديماً جاءوا إلينا في قضايا الميراث لأن الإسلام يعطى الذكر مثل حظ الأنثيين — ولو أنه فاتهم أن الإسلام كل غير قابل للتجزئة ، وأنه إذا كان يعطى المرأة نصف حظ الذكر ، فلائنه لا يكلفها نفقة على زوجها ولا على نفسها ولا على أولادها ولا على أحد من أقاربها ؛ على حين أن الرجل مكلف بالنفقة عليها ولو كانت غنية ، وعلى أولاده ووالديه وأقاربه إن كانوا فقراء .

وإن في هذه الحريات من الحق والإنصاف والإسماح ورعاية مشاعر غير المسلمين مالا تجده في القوانين الوضعية الحديثة ؛ فإله تعالى لا يشرع حين يشرع للمسلمين وحدهم فيظلم النصارى محاباة لهم ، ولا يشرع للنصارى فيظلم المسلمين لحسابهم ، وإنما يشرع لخلقهم جميعاً وهو أعدل الحاكمين ، وليس في حاجة إلى ظلم أحد لحساب أحد .

وإن الدول الأجنبية والقوانين الأجنبية لا تعطى أحداً من الناس من الحقوق مثل ما أعطى الإسلام لغير المسلمين ؛ فالمسلم الإنجليزي كاللورد هدى مثلاً . لا يستطيع أن يتوارث أبناؤه على ما أنزل الله ، بل طبقاً للقانون الإنجليزي ، ولا أن يتقاضى أمام قاضيه بل أمام قاض غير مسلم ، ولا يكون زواجه وطلاقه وهبته ووصيته إلا طبقاً للقانون الإنجليزي ، وكذلك القانون الفرنسي وسائر القوانين الأجنبية حتى القانون التركي لم يجعل للمسلمين ولا لغير المسلمين حقاً في أن تستريح نفوسهم بالعمل بقواعد دينهم .

وأما من حيث المعاملات فإن المسيحية ليس فيها نصوص تنظمها ، أما الإسلام فقد تعرض لها وقرر أحكامها ، فالبيع - والشراء - والإجارة - والقرض - والعارية - والشركة : كل ذلك مما تعرض له الإسلام وتكلم فيه الفقهاء من أمور الدنيا قد جعل شرعاً للمسلمين لا يختلف عن الشرائع المعمول بها في الوقت الحاضر في سائر البلاد غير الإسلامية إلا في أحوال قليلة . ويهمننا أن يلزم المسلمون دينهم ، وأن يأخذوا به على أنه أمر من الله تعالى واجب الطاعة والاحترام ، وأن يروضوا أنفسهم على تنفيذه بدافع من ضمائرهم واعتقادهم لا مراعاة لنصوصه فقط ، تلك النصوص التي يشعر المرء فيها بأنه يستطيع الخروج عليها وعدم الطاعة لها متى قدر على ذلك مادام يعتقد أنها من صنع إنسان مثله ليس له حق الاستعلاء عليه والتشريع له لجواز خطئه وتجزئه وتأثره بالأهواء والأباطيل .

ولما كانت المسيحية ليس فيها نصوص من هذا القبيل فيستوى عند المسيحيين أن يكون قانون المعاملات بحيث يعتقده المسلمون ديناً ويحترمون تنفيذه في حق أنفسهم وحق غيرهم ، وأن يكون قانوناً بالنسبة لغير المسلمين .

وقد بقي قانون المعاملات معمولاً به في مصر مدة ثلاثة عشر قرناً ، فأصبح بذلك قانوناً قومياً للمسلمين والمسيحيين على السواء .

قَصَصُ الْفِرَاقِ

نوح عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهي الخولي

(٢)

عرضنا في المقالة السابقة قصة نوح عليه السلام كما قصها القرآن الكريم . . فهل قص الله سبحانه فيها كل ما كان بينه وبين قومه من جدل ، وحوار ، وتعليم ، وخصام في مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

إذا نظرنا إلى نهج التاريخ الذي يعنى بسرد الحوادث ، وتقرير الأنباء ، وذكر أرقام السنين ودورات الزمن ، قلنا : لا . . . وإذا نظرنا إلى نهج الحكمة والعظة الذي يعنى بفطرة الله الصادقة في كل شيء ، وسنته الأصلية التي يدار عليها شأن الفرد والمجتمع ؛ ورجع إليها في تقدير قيم الأعمال والأوضاع والاتجاهات . . . إذا نظرنا إلى ذلك النهج ألفينا القصة السريمة قد ذكرت لنا كل شيء عما كان بين نوح عليه السلام وقومه .

ذلك أنها عرضت لما طرأ على العقيدة الصالحة من فساد ؛ وبينت ظواهره وأعراضه ؛ ونوهت بالآثار السريمة الروحية ، والاجتماعية ، والاقتصادية التي تترتب على العودة إلى العقيدة الفطرية السليمة . .

وعرضت لقادة البيئة ورؤساء القوم ، وبينت فساد منطقهم ونظرهم إلى قيم الحياة . . . وأثرهم في تضليل العامة ، واستدراجهم إلى جانبهم ، وتزييف الحقائق عليهم . . . ونهجهم في اللجوء إلى الوعيد عند غلبة البرهان ونصوع الحجة ، وتوقع الخوف على ما في أيديهم من رياسة وسلطان ومنفعة . . .

وأبانت حقيقة العمل الصالح والعمل الفاسد ؛ والمنهج الذي يقوم به كل منهما ؛ والعاقبة المحتومة لكل نهج .

أى أنها عرضت للمقومات الأصلية لكل مجتمع :

.. العقيدة . .

.. والقيادة . .

.. والعمل . .

فإذا فسد كل أولئك فهو مجتمع فاسد ، وإن بدا للعين شامخ البنيان ، عزيز السلطان ، واسع الرقعة . وإذا صلح كل أولئك فهو المجتمع المثالى الصالح الذى يرث العاقبة لا محالة ، ويدل الله له من عدوه ولا بد .

ولقد كنا نقول فى المقال السابق إننا نعنى بالمجتمع ذلك القبيل من الناس « الذى استقر فى بقعة من الأرض كبيرة أو صغيرة . . . وربطت بينهم أواصر النسب القربية أو البعيدة ، وواشجت بينهم المصالح المختلفة ووحدة الهدف العام . الخ » كنا نقول ذلك ، وكنا نعنى به المقومات الطبيعية لكل مجتمع صالحاً كان أو غير صالح ؛ أى كنا نعنى المقومات التى لا تتعلق بصلاحه أو فساده . . أما تلك الثلاثة التى نحن بصدددها : العقيدة . . . والقيادة . . . والعمل ؛ فهى المناط الحقيقى للمصالح إذا صلحت ؛ وهى المناط الحتمى للبوار والفساد إذا فسدت . . وهى التى عقد عليها السياق فى قصة نوح عليه السلام ، ولذا قلنا فى المقال السابق : أن قصة نوح هى قصة الإصلاح والفساد لكل مجتمع . . . وسنحاول إن شاء الله أن نعرض ما جاء فى القصة الكريمة عند كل أصل من هذه الأصول الثلاثة ، قدر استطاعتنا ؛ وبه سبحانه التوفيق ، ومنه وحده نستمد العون . .

أولاً : العقيدة

كان هؤلاء القوم يعبدون آلهة لهم من دون الله ؛ ورد عنها فى القرآن الكريم قوله سبحانه :

« وقالوا لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا وداً ، ولا سواها ، ولا يغوث ويعوق ونسراً^(١) . . وهو قول يحتمل أن تكون الآلهة أكثر مما ذكرته الآية الكريمة ، وأن تخصيص تلك الخمسة بذكر أسمائها إنما جاء على ألسنتهم لما لها عندهم من جلاله الشأن وعلو المقام ؛ قال الإمام الزمخشري فى تفسيره : « كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم ، وأعظمها عندهم ، فخصوها بعد قولهم لا تذرنا آلهتكم » .

فرم عبادة الأوثان :

وعبادة التماثيل ظاهرة دينية قديمة ، لازمت الناس في كثير من البيئات على تعاقب الدهور ، ولا يزال لها إلى اليوم طقوس وشعائر تؤدي في بعض جهات الأرض .
ولا يستطيع باحث أن يحدد لنا على سبيل اليقين متى وأين بدأت عبادة التماثيل .
ولكننا نستطيع أن نقول : إنها بدأت في عمران مستقر ، لا في بادية قلقة كثيرة الحل والترحال . . . عمران مستقر ذي حضارة يزدهر فيها فن النحت والتصوير ، ويغلب على حياة أهلها الخضوع لمقتضيات فطرة التدين .

وازدهار فن النحت والتصوير ، لا تبلغه الإنسانية إلا بعد أن تكون قد قطعت من عمرها أزمانا متطاولة ، ومرت في مدارج تجاربها بمراحل بطيئة . . . متعاقبة وهذا ما يدعونا إلى القول بأن عبادة التماثيل نشأت بعد آدم بدهور طويلة لا يعلمها إلا الله ، وأن بين آدم ونوح عليهما السلام من الأزمنة البعيدة أكثر مما جاء في التوراة ، ونقله عنها بعض علماء المسلمين . بما لم يتأيد بنص من كتاب الله سبحانه ، أو سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وإذا كان قوم نوح يقولون له في التوحيد الذي يدعوهم إليه : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » فمعناه أنهم لم يبتدعوا تلك الوثنية ابتداء بل ورثوها عن آبائهم الأولين منذ أجيال موعلة في القدم . . . أجيال تتسع بها الشقة الزمنية بين آدم ونوح إلى أكثر مما تصوره كاتب التوراة عن ظن ضيق وتخمين ساذج . . . فإنه قدر ما بين خلق آدم وولادة نوح بألف سنة وخمسين عاما . . . وهي مدة لا تكفي لقيام حضارة مستقرة يزدهر فيها فن النحت ليؤدي بفطرة التدين بعض ما يقرُّ به أصحابها من المطالب . . . فكيف والقوم قد عرفوا التماثيل وعبدوها قبل ولادة نوح بأجيال كثيرة ؟

بين التوحيد والوثنية :

ولقد هبط الإنسان هذه الأرض ولا تجارب له . . . فذهنه خال تمام الخلو من كل تجربة تعينه على عمارتها ، وكان عليه أن يبدأ طريق تجاربه الطويل من أول نقطة له . . . ولكنه مع ذلك هبط وهو يحمل - فيما يحمل - من المواهب سرّاً قدسياً شديد الحساسية والوهج . . . سرّاً موصول الأسباب بما وراء الكائنات المنظورة من غيب رهيب جليل ، يذهب بمشاعر الإنسان وأشواقه وقواه الخفية بالباطنة إلى تلمس ما في هذا

الغيب من نور وسعادة وخير وطمانينة . . . وذلك هو ما أسمىناه فطرة التدين . . .
فكان ينظر إلى الأشياء التي تحيط به في أفق هذه الأرض بفطرته تلك المشرقة ،
لا بمعذته ومنطق منافعه .

لم يكن الإنسان قد جرب لذائد هذه الأرض عند هبوطه إليها ، ولم تكن
أشياءها قد ارتبطت بمواقع شهواته ومرضاته ، فكان نظره إليها وحكمه عليها
خالياً من إحماءات الهوى ورغبات الفرائز . . . وإنا لنستطيع أن نتخيله قائماً
يحديق فيما حوله من خلال فطرته الساطعة . . . وهي فطرة ذات منطق يربط
الأسباب بالمسببات . . . والنتائج بالمقدمات . . . والأشياء بصانعها . . . والخلوقات
بخالقها ، فتبدوا له الكائنات في نور تلك الفطرة كأنها لوحات معرض جليل عظيم ،
تحدثه ببيانها الصامت ، ولسان حالها البليغ عن قدرة خالقها المبدع جل شأنه
وعن حكمته ، وعن علمه . . . الخ . . . ولم يكن قلبه النقي قد شابه لوث المادة وتفكير
المنفعة ؛ فكان حديث اللوحات ينفذ فيه إلى الشغاف ، ويهزه من الأعماق ، ويشير فيه
كل نابضة وخالجة . منفعة بشعور الدهشة والإعجاب والإجلال لشأن الخالق المبدع
العظيم جلت عظمته .

ومع أن هذا النظر الفطري الصادق كفيلاً أن يهدي الإنسان إلى توحيد الخالق
سبحانه ، ويُقر في قلبه عقيدته المكيّنة ، فإن آدم عليه السلام جاء مزوداً بأسرار تلك
العقيدة وتعاليمها ، مأموراً أن يقيم حياته في الأرض على مقتضاها « فإما يأتينكم مني
هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وهذا الذي نقرره هو أصدق المذاهب الاجتماعية ، وأليقها بالفطرة ، وأوفقها لما
جاءت به نصوص الإسلام الحنيف . . . ولا عبرة بما يذهب إليه بعض علماء الاجتماع
الديني من أن الدين في جوهره ظاهرة اجتماعية ينشئها المجتمع في نفوس أفراده بحسب
درجته من الرقي ، فإذا كان المجتمع ساذجاً في تفكيره ، بدائياً في أسلوب حياته ، جاء
الدين صورة أو خليطاً من أوهام تلك السذاجة ، ولا مانع حينئذ أن يكون النبات
أو الحيوان إلهاً معبوداً إذا توهم عقل القبيلة أو عقل الجماعة أنها انحدرت من سلالة
هذا النبات أو ذلك الحيوان !!!

فإذا كان المجتمع قد جاوز السذاجة إلى طور الاجتماع الذي تكثر فيه احتياجات
الأفراد ، وتشابك فيه مصالحهم ، فهو مجتمع أرقى ، يهب لأفراده عقيدة أرقى . . .
فإذا استبحر العمران ، وتألفت للمجتمع امبراطوريات ، ترقى عقل الجماعة وظهر

التوحيد باعتباره احدى ثمار هذا الرقى . . . فالدين عندهم على هذا ظاهرة اجتماعية ، يصنعها المجتمع لأفراده . . أو هو شيء ينبع ابتداء من عقل المجتمع ، ولا دخل فيه لعقول الأفراد أو ينابيع أفئدتهم .

وكان هؤلاء يفترضون في الإنسان أنه كائن معطل من المواهب العليا ، والمشاعر الروحية الرفيعة . ١

يعطونه من تفكيره الداني ، ومنطقة الفطرى الذى يربط — فى بساطة — السبب بالمسبب ، والصنعة بالصانع ، والخلق بالخالق . . .

ويعطونه من الملكة الحساسة التى تتلقى إلهام الكائنات ، وإحباطاتها المتجددة عن الله ، فتحيلها مشاعر قدسية ، تطهر القلب ، وتزكى النفس ، وترفع المرء إلى السماء ، وتصله بالله سبحانه . .

فإذا عطل الإنسان من منطق السليم ، وفيض وجدانه الكريم ، فماذا يكون شأنه إلا أن يكون آلة مصمتة ، أو دابة مغلقة لا امتياز لها ؟ .. ومثل ذلك الإنسان لا يعرفه واقع الحياة لا فى قديمها ولا فى حديثها ؛ ولا يعرفه الإسلام الذى نبه إلى ما يمتاز به البشر منذ اللحظة الأولى من جليل المواهب ، وتنوع الملكات والمدارك بقوله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »

نعم إن الدين قد تدخله أو يمتزج به بعض إلفاء فاسدة من عادات المجتمع أو أهامه فلا يلبث الناس أن يظنوها عناصر من عناصره الأصلية ، فتفسد العقيدة ، ويختل ميزان الأعمال وتقدير القيم . . قد يحصل هذا أو نحوه وهو قريب مما يحدثنا القرآن الكريم عنه فى عبادة قوم نوح ، ولكن هناك فرقاً أصيلاً شاسعاً بين أن يكون الدين فطرة أصيلة فى المرء تختلط أحياناً ببعض أهام البيئة ، وبين أن يكون شيئاً لاعلاقة له بالمرء إلا أن يصنعه له عقل المجتمع ويوحيه إليه على حسب ترقى هذا العقل . ١

فالدين فطرة فى الإنسان أولاً . . . والتوحيد . . . توحيد الخالق سبحانه هو نظام هذه الفطرة وناموسها الوحيد الذى لا تحمل سواء . . . وهو القول الذى يذهب إليه ثقات علم الاجتماع الدينى : وقد قلنا أن هذه الفطرة مارست مهمتها منذ أن وجد الإنسان نفسه فى هذه الأرض ، وقام يحقق فيها حوله بنوره الساطع الباهر . . فكان كل شيء يقع عليه بصره يذكره بالخالق الصانع ، إذ لا يرى على صفحته سوى سر من أسرار صفاته جل شأنه .

كانت صحيفة تجارية العملية والاجتماعية خالية تمام الحلو من كل أثر سابق .. وكان حسه الذى يذوق به ما فى هذه الأرض يجهل كل الجهل أن يميز بين لذائذها المتنوعة ، وأن يفرق بين صنوف أو طعوم طبيئاتها المختلفة . . . وكان منطقته الذهني القائم على إدراك أن صلة الأشياء ببعضها ببعض عن طريق ما ترى العين وتسمع الأذن . . كان هذا المنطق غفلا أملس لم يمارس مهمة فى الحياة بعد . . ولم يكن فيه من موهبة تعمل عملهم ، ونؤدى رسالتها إلا تلك الموهبة الفطرية التى تتألق شمسها الباهرة بين جنبهيه ، فلا ترى فى الكائنات إلا الله سبحانه . . أى أن وعيه كله كان مركزا فى فطرته للتدبئة الحساسة . .

وبدأت بشرية الإنسان تكسح كدحها وتباشر اختصاصها فى هذه الأرض . . .
بدأ يفكر : كيف يحفظ نفسه من الجوع . . والظما . . والحر . . والبرد . .
وسائر غوائل الطبيعة

وبدأت المشاهدات تلفته إلى ألوان لذائذها . . وطعومها . . ومنافعها . .
وبدأ يقارن بين قيم الأشياء : أيها أفضل وأعود عليه بالمنفعة واللذة ؟
وبدأت غرائزه تنمو . . . وتتشعب . . . واحتياجاته تتنوع وتتفرع . . .
وبدأت تجاربه تكثر ، ودائرة معارفه تزداد ، ومحيط نشاطه الذهني يستفيض ،
فهو دائم النظر فيما حوله : موازنة ، أو استقراء ، أو تحليل ، أو تعليلا ، . . ليدرك
سر الانتفاع بالأشياء ، ويوافي احتياجاته منها بما يريد . .

أى بدأ وعيه الذى كان مركزا فى فطرة التدين ينسحب بالتدريج إلى الاتصال بما حوله
ويدأت الكائنات التى كانت لا تحده إلا عن الله تحده أيضا عن طعومها ولذائذها ومتعها
وبدأ القلب الذى كان لا يطرب إلا بما تلقىه إليه الكائنات من تسبيح الله جل
شأنه ؛ يطرب لما يذوق من طعوم أو يصيب من لذة .
وبدأ الذكر الحالى لله يشوبه ذكر المنافع الأرضية
وبدأ نور الفطرة يزاحمه ظل الشهوات والهوى

وكان ذلك هو سبيل الناس إلى الوثنية فى جميع صورها إلى اليوم . . . وأقدم
مجتمع حدثنا القرآن الكريم عن وثنيته هو مجتمع قوم نوح . . . وموعدا المقال
القادم فى كيفية نشوء هذه الوثنية وآثارها الاجتماعية والنفسية والله الموفق .

مِنْ عِلْمِ السُّنَّةِ

في البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٩)

باب النهي عن بيع الغرر^(١)

١ — عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بيع حبل الحبل^(٢).

٢ — وعنه أيضاً قال : كان أهل الجاهلية يبيعون لحم الجزور^(٣) بحبل حبل ؛ وحبل حبله تنتج الناقة ما في بطنها ثم تحمل التي تنتجه^(٤) ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك.

٣ — وعنه أيضاً قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الغرر ، وقال إن أهل الجاهلية كانوا يبتاعون ذلك البيع : يبتاع الرجل بالشارف^(٥) حبل الحبل ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك .

٤ — عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الغرر ، وفُتِّرَ بحجج^(٦) بيع الغرر قال : إن من الغرر ضربة

(١) الغرر : ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول .

(٢) الحبل : جمع حابل والهاء فيه للمبالغة .

(٣) الجزور : البعير ذكراً كان أو أنثى .

(٤) أي تعيش المولودة حتى تنكبر ثم تحمل .

(٥) الشارف : الناقة المسنة .

(٦) أحد رجال السند في هذا الحديث .

الغائص^(١) ، وبيع الغرر العبد الآبق^(٢) ، وبيع البعير الشارد ، وبيع الغرر مافي بطون الأنعام ، وبيع الغرر تراب المعادن ، وبيع الغرر مافي ضروع الأنعام إلا بكيل .

٥ — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شراء مافي بطون الأنعام حتى تضع ، وعن بيع مافي ضروعها إلا بكيل ، وعن شراء العبد وهو آبق ، وعن شراء المغام حتى تقسم ، وعن شراء الصدقات حتى تقبض ، وعن ضربة الغائص .

٦ — عن علي رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع المضطرين ، وعن بيع الغرر ، وعن بيع الثمرة قبل أن تدرك^(٣) .

٧ — عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تشتروا السمك في الماء فإنه غرر^(٤) .

٨ — عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بيع الحصى^(٥) ، وبيع الغرر .

(١) أن يبيع الغائص في الماء ماسيخرجه قبل أن يعرف .

(٢) الآبق : الهارب والبعير الشارد كالعبد الآبق في الحكم والمعنى .

(٣) تدرك : أي يبدو صلاحها ، وتؤمن من العاهة ؛ وذلك يكون بانعقاد الحب واصفرار التمر أو احمراره .

(٤) أي أن يبيع السمك في الماء باطل لعدم العلم به والقدرة على تسليمه .

(٥) أن يقول البائع للمشتري بعثك من هذه الأنواب ما وقعت عليه هذه الحصى .

الصَّوْمُ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا عَلَى مَا هَذَا كُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

١ — هذه الآيات الكريمة بينت فرضية الصوم ، وعينت زمانه ؛ وأشارت إلى
أنه ليس زمانا طويلا يثقل على النفوس بطوله ، ولا بطريقة ترهق الجسم ، ولكنه
يسر لا عسر فيه ، وفيه شكر للنعمة ، وهو يؤدي إلى التقوى ، وهو يهذب النفس
من غير إرهاق ، ويغذي الوجدان من غير هدم للبنیان .

وفي الجملة هذه الآيات الكريمة بينت المقصد من الصوم ، وبينت وقته ، ولماذا
اختير ذلك الوقت دون سواه ؛ ثم بينت الأعذار المسوغة للافطار ، وهكذا ، فهي كما
يقول المناطقة جامعة مانعة ، بينت الأحكام والغايات منها في إيجاز بليغ هو سر
الإعجاز ، وإحكام دقيق فيه روعة البيان .

٢ — لقد قرر الله سبحانه أن الصوم كتب فريضة محكمة في الإسلام كما كتب على
الناس من قبل ، فرضته عليهم الشرائع السماوية ، ففي اليهودية صوم ، ولعله في الأصل
كان كما هو في شريعة الإسلام ، ولا تزال بقية منه عند اليهود اليوم ، وفي النصرانية
صوم كما في اليهودية ، ولا تزال أثارة منه اليوم .

ولقد ذكر التاريخ في الغابر ، كما يرى الناس في الحاضر أن الديانات التي لا يعرف
أصلها السماوي فيها صوم يختلف في العنف والشدة ، ويقصد به عند الكثيرين من

أهل هذه الديانات تعذبت الجسم لتطهير الروح حاسبين أنه كلما ضعف الغلاف الجسمي تطهر القسم المعنوي في الإنسان ، وهو الروح فهو حقيقة الإنسانية والجسم غلافها ، وكلما رق الغلاف تكشفت الحقيقة وتطهرت ؛ وقد كان ذلك عند الهنود وما زال ، وأخبارهم تجيء إلينا تترى .

وقد كان عند المصريين صوم وقد أخذهم عنهم اليونان ثم الرومان . ولعل الصوم عند أهل هذه الديانات البائدة والباقية كان في أصله يرجع إلى شرع سماوى ، ثم تغيرت أشكاله وأخذ هذه الألوان من التعذيب قوة وضعفاً ، وليس لأحد أن ينقئ بعث الرسل إلى هذه الأقوام في القديم لأن من الرسل من لم يذكر الله سبحانه وتعالى أخبارهم ، كما قال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » وقد قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

٣ — وإن الصوم قد شرع في الإسلام لتهديب الروح من غير إرهاب للجسم كما قلنا ، ولتقوية النفس على الأهواء من غير تعذيب للجوارح ، وقد بين سبحانه غاية الصوم فقال بعد فرضية الصيام : « لعلكم تتقون » وقال بعد فرضيته وبيان رخص الإفطار : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، . . . ولعلكم تشكرون » . فغاية الصوم وثمرته تربية التقوى في نفس المؤمن ، وبعث الشكر لربه الذى أنعم عليه بكل شيء .

والصوم يربى في النفس التقوى ؛ وذلك لأنه يتجه بالنفس إلى أمور ثلاثة كلها يربى فيها التقوى .

أول هذه الأمور : أن الصوم تقوية للروح ؛ ذلك بأن الإنسان فيه عنصران : عنصر روحى ملكى يشترك فيه مع الملائكة ؛ والعنصر الثانى عنصر جسمى حيوانى يشترك فيه مع الحيوان ؛ فخاجات الجسم من مأكل ومشرب ، ولذات هى من الطبيعة الحيوانية فى الحياة الإنسانية ، والتهديب والإدراك والسمو والرفعة إلى المعنويات ، والعلو إلى المناهج الروحية كل هذا من الطبيعة الروحية ، ولا شك أن فطم النفس عن شهوات الجسم أمدأ يتناول النهار كله فيه سيطرة للروح على الجسم ؛ وتغليب للعنصر الملائكى على العنصر الحيوانى ، وكلما كان ذلك بقدر معتدل يستطيعه الناس جميعاً فى عامة أحوالهم وشئونهم كان التهديب أعم ، وتربية النزعة الملكية شاملاً لأكثر عدد من الناس ؛ ولذلك كان الصوم فى الإسلام رفيقاً سهلاً ليعم نفعه كل الناس ، وتكون أسباب التقوى فى طاقة كل الناس .

وثانى الأمور التى تؤدى إلى التقوى فى الصوم : أن الصوم عبادة مستمرة ، تستمر كما قلنا آتاء النهار فالعبد يستمر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فى عبادة يذكر الله سبحانه وتعالى ، ويستشعر عظمته ويحس أنه فى رحمة الله وطاعته فيكون ذا كراً لله ذلك الجزء المديد من الحياة اليومية ، وبالاتمرار على ذلك شهراً كاملاً محسباً بأنه فى الطاعة لرب العالمين ، كلما مسه الجوع أحس بعبادته ، وكلما أظفأ العطش ذكر ربه ، تربت التقوى فى قلبه بذكر الله دائماً . وتذكر الله هو لب العبادة وأساس الطاعة ، وهو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر . ولذا قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » -- وما كانت المعاصى إلا فى غفلة عن ذكر الله ، وما يعصى العاصى إذ ينحرف عن الطاعة ، إلا وهو غافل عن ذكر الله .

ومن أجل أن الصائم فى عبادة مستمرة طول اليوم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الرفث والفسوق فى القول ، واعتبر ذلك فى يوم الصوم أشد من سائر الأيام ؛ لأنه يفسد العبادة ، كما يفسد الكلام الصلاة ، وقد قال عليه السلام : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق » وقد روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل (أى السفه) فليس لله حاجة فى أن يدع شرابه وطعامه » .

وثالث الأمور : أن الصوم فيه تقوية للإرادة الإنسانية ، وتغليب للعقل على الشهوة ، فإن الأهواء هى التى تردى الإنسان وتفسد قلبه ، وإن شهوات الجسم ولذاته هى التى تدفعه نحو المعاصى عندما تنحرف وتشتد وتقوى ، فإذا تحكّم فيها ، فقد سيطر عقله على هواه ، وإرادته على شهوته .

والصوم يقوى الإرادة ويفطم الإنسان عن أهوائه ؛ لأنه يستمر يوماً مستدبراً شهوات الجسم غير ملتفت إليها فتقوى إرادته ، وتشتد عزمته ، ويكون ماله كاللزام نفسه ؛ فتكون التقوى والعمل على الطاعة من غير معوق من معوقات الشهوة والهوى .

والصوم فيه عزاء النفسى للفقير لأنه يرى أن المال الذى يمكنه من إشباع شهوات الجسم ولذاته شئ يمكن الاستغناء عنه إذا تغلب المرء على تلك الشهوات أو منع سلطانها والصوم صورة واضحة من ذلك السلطان .

٤ - والصوم فى الإسلام كما قلنا يكون فى أيام معدودات ذكرها أولاً مجملة ، ثم ذكرها ثانياً مبينة ، فذكر أنها شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .

ولماذا كانت الفرضية في شهر رمضان ؟

والجواب عن ذلك قد أشار إليه القرآن فقد قال تعالى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فذكر ذلك الشهر المبارك مقرونا بذلك الوصف الذي رفعه ، والشرف الإضافي الذي أضفاه المولى القدير عليه بكون أول نزول القرآن الكريم كان فيه وفيه ليلة القدر التي كان فيها أول الوحي المحمدي ، والقرآن الكريم سجل هذه الشريعة ، وحجة هذا الدين ، ومعجزة الرسول الأمين ، ولذا قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » .

فرمضان في كل عام هو ذكرى النبوة الأولى والرسالة المحمدية ، قد اختاره المولى القدير لينزل فيه وحى السماء إلى الأرض ؛ ففيه كان أول نزول القرآن ، وقد اختاره سبحانه وتعالى أيضاً ليرتفع فيه الروح الإنساني من الأرض إلى السماء بالانخلاع من الشهوات الجسمية ، والملاذ البدنية والطبائع الأرضية التي يشترك فيها الإنسان مع سائر الحيوان . ولقد وضع ذلك المعنى نثر الدين الرازي في تفسيره ، فقد قال : « اعلم أنه تعالى لما خص هذا الشهر بهذه العبادة بين العلة لهذا التخصيص ، وذلك هو أن الله سبحانه خصه بأعظم آيات الربوبية ، وهو أنه أنزل فيه القرآن ، فلا يبعد أيضاً تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية ، وهو الصوم ، وبما يحقق ذلك أن الأنوار الصمدية متجلية أبداً يتمتع عليها الاختفاء والاحتجاب إلا أن العلائق البشرية ، مانعة من ظهورها في الأرواح البشرية ، والصوم أقوى الأسباب في إزالة العلائق البشرية ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ؛ فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فلما كان هذا الشهر مختصاً بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصاً بالصوم »

٥ — وقد كان في رمضان ذكريات إسلامية أخرى فيها اعتز الإسلام ؛ وصارت كلمته هي العليا ، ففي رمضان كانت غزوة بدر الكبرى التي كانت أول انتصار للحق على الباطل ، وللوحدانية على الشرك وبها أزيلت غواشي الشرك ، وكشفت حجب الطغيان وبها كان للإسلام صولة ، ومن بعدها تكونت الدولة الإسلامية تقمع الشرك ، وترد كيد المشركين ، وتسوس المسلمين ، وتهدى الضالين ،

وفي رمضان كان الفتح المبين ، ففي رمضان فتح الله على المسلمين مكة المكرمة ،

وحرم الله الآمن ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في جيش الله المظفر وجند الله القوى . وأخذ يحطم الأصنام ، وطهر من رجسها البيت الحرام ؛

تلك هي ذكريات ذلك الشهر المبارك ، وقد كتب على المسلمين أن يحيوها بصوم تتطهر فيها الأنفس ، وتهذب الأرواح ، وتسحو عن منازل المادة ، وتعلم في معراج القدسية ، وليدركوا ماضيهم الغابر ويعرفوا به ما هم عليه في الحاضر ؛ فاعلموا أن الأهواء هي التي أركستهم ، والشهوات هي التي أبعدتهم عن مناط عزمهم ، ومفاخر ماضيهم .

٦ — كتب الله سبحانه وتعالى على المسلمين الصوم في رمضان ، وفرضه عليهم فريضة محكمة ، وأن يكفوا عن كل شهوات البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ثم يتناولوا من بعد المباحات حتى يروا الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر .

ويبتدئ الصيام من وقت رؤية هلال رمضان ، كما قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ولا يصح أن يعجلوا الصيام بيوم أو يومين إلا أن يصادف ذلك نفلا قد اعتادوا صومه .

وليس الصوم في الإسلام تعذيباً للجسم ، ولا إرهاقاً للنفوس كما قلنا ، ولكنه تهذيب للنفوس وتقوية لها بالكف عن ملاذ الجسم أمداً غير طويل ! ما دام يستطيع ذلك من غير إجهاد ولا مشقة ، ومن غير إعانت ، ولذلك رخص في الإفطار في الأحوال التي يقترن فيها الصوم بمشقة شديدة لا تقوى معها الأجسام على احتمال الصوم من غير إرهاق .

٧ — ولقد رخص الإفطار لثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : من كانوا على سفر ، فقد أيسح لمن يكون مسافراً أن يفطر ، وقد ورد النص القرآني بذلك وقد أفطر النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان عند الفتح ، وذلك بعد أن صام فترة حاكاه من معه فصاموا مثله ، فقليل له صلى الله عليه وسلم : « إن الناس قد شق عليهم الصيام ؛ وإنما ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدر من ماء بعد العصر .

وقد اختلف الفقهاء في جواز الصيام في السفر وأفضليته ؛ فقال الظاهرية وبعض الإمامية إن الصيام في السفر لا يجوز عن الفرض ، بل يكون تطوعاً ، وعلى المسافر عدة من أيام أخر ؛ لأن المسافر في أيام رمضان سقط عنه الفرض فيها ؛ والفرض عليه في أيام أخر ؛ ولوجود نصوص قد يفيد ظاهرها هذا .

وقال الأكثرون إن المسافر له أن يفطر وأن يصوم ؛ فإن صام فقد أحيا الشهر ؛ وهو مثاب مادام لإرهاق في الصوم ؛ وإن أفطر فبرخصة الله أخذ ، وإن الله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن يؤتى عزاءه .

وقال بعضهم إن الأفضل أن يصوم إن كان يقدر على الصيام من غير مشقة ، وإن عند هذا النظر في أيامنا ؛ فإن السفر الآن يتصور فيه الصوم من غير مشقة ، لتوافر أسباب الراحة للمسافرين ، ولا أرى الإلزام بالصوم حيث لا مشقة في السفر ، لأن ذلك يكون معادمة للنص ، ويكون معارضة لرخصة الله التي رخصها ، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يقضى في أمر بما يخالف النص ، وأنى يكون لمتدين أن يبطل رخصة الله لعباده .

الطائفة الثانية : هم المرضى فالمرض رخصة ، والمرض الذي يرخص الإفطار هو المرض الذي يكون معه الصوم بمشقة شديدة فوق المعتاد ؛ أو يثبت أن الصوم يزيد المرض . أو يبطئ الشفاء ؛ ويعلم ذلك بإخبار أهل الخبرة من المسلمين الثقات .

ويلحق بالمرضى من حيث التعرض للخطر الجسمي بالصوم المرضع والحلبى ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشرط الصلاة ؛ وعن الحلبى والمرضع الصوم »

وإن هذه الطائفة والطائفة التي سبقتها عليهم إذا أفطروا أن يصوموا في أيام آخر بقدر ما أفطروا ؛ وهذا لصريح قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر » وليس عليهم فدية ولا كفارة .

الطائفة الثالثة : هم الذين يشق عليهم الصوم ولا يستطيعونه إلا بأقصى الجهد ؛ ولا أمل لهم في أيام يستطيعون فيها لمرض مزمن لا يرجى برؤه ، أو لشيخوخة متقدمة لا يرجى معها القدرة ؛ وهؤلاء لهم الإفطار على فدية يؤدونها وهي طعام مسكين ؛ وهذا قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

فإن الإطاقة هي عدم القدرة على الفعل إلا ببذل أقصى الطاقة ، أى أنه لا يفعل الفعل إلا بمشقة شديدة ، وهذا تفسير الراغب الأصفيهانى لمعنى الطاقة فقد قال : الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء ، فقوله تعالى : « بما لا طاقة لنا به » أى ما يصعب علينا مزاولته وليس معناه لا نحملنا ما لا قدرة لنا به . . . وقد يعبر بالطاقة عن نفى القدرة ، وقوله تعالى :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ظاهره يقتضى أن المطيع يلزمه فدية أفطر أو لم يفطر لكن أجمعوا أنه لا يلزمه إلا مع شرط آخر .

ولقد صرحت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين بأن هذا الجزء من الآية الكريمة موضوعه الذين لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة شديدة ، ولا رجاء لهم في قدرة في أيام مستقبله ، فقد جاء في تفسير ابن كثير ما نصه : (عن عكرمة عن ابن عباس نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » في الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم) وإذا كان من في هذه الحال — وهو أنه لا يستطيع الصوم إلا بمشقة كبيرة — لا يملك ما لا يفدى به ، فإن الله غفور رحيم ؛ لأنه إذا كان قد أسقط فريضة الصوم لعجزه ، فإنه أولى أن يسقط عنه فريضة الصدقة لفقره وعجزه .

٨ — وتبين من هذا أن الذين يشق عليهم الصوم من المرضى والزمى ، وذوى الهرم ، والحوامل والمراضع ، قسما قسم يرجى أن يقدر في المستقبل ، وهذا عليه القضاء في أيام آخر ، ولا فدية عليه . وقسم لا ترجى له مقدرة في المستقبل ، وأولئك هم الزمنى وذوو الهرم ، وهؤلاء عليهم الفدية وهى إطعام مسكين عن كل يوم ، وإن لم يكن عندهم مال يفضل عن حاجتهم فالله عفو غفور .

ولكن هناك أحوالا فردية خاصة يكون الشخص في جهد شديد من غير مرض ولا سفر ، ولا مسوغ للإفطار من المسوغات العامة كأن يصوم شخص من غير سحور ثم يصير في حال جهد يتعذر أو يتعسر من إتمام الصوم . فهل له أن يفطر ؟ أجمع العلماء على أن له أن يفطر ، على أن يقضى في أيام آخر ، وهذه حال شخصية لا تجمعها قاعدة ، فلا يصح أن يقال إن العمال الذين يقومون بعمل مجهد لهم أن يفطروا ، أو طلبة العلم الذين يؤدون الامتحان لهم أن يفطروا . لا يقال ذلك كقاعدة ولكن يقال من كان في مشقة شديدة ، ولا قدرة له على الاستمرار في الصوم ، ويعلم ذلك من نفسه — علم اليقين فله أن يفطر . والأمر في ذلك إلى ضميره ، والله محاسبه على ما يفعل إن خيرا غير ، وإن شرا فشر ، فإن غALT نفسه وحسه والناس فالله به عليم ، ويستوى في هذه الحال العامل في عمل شاق وغيره فالعبرة بالحال الشخصية التي لا يسيطر عليها إلا الوجدان .

٩ — ويلاحظ أن المشقات هى المشقات الجسمية ، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين أو الأئمة المجتهدين ما سموه للمشقات أو الأعذار الفكرية ، كالذى

يدعى أن الصوم يعوق عن التفكير ، أو يبطئ الفهم ، وعلى ذلك الزعم يسوغ للطلبة الذين يؤدون الامتحان أن يفطروا .

إن الصوم لا يعوق قط عن التفكير ، بل إن المأثور أنه يربى في القلب صفاء يدفعه إلى التأمل والفكر المستقيم ولذلك كان يتخذ الصوفية ومن ينهج نهجهم لتصفية نفوسهم وإعلاء مداركهم .

وما يظنه بعض الناس من أنهم لا يفكرون تفكيراً مستقيماً في أثناء الصوم فذلك وهم من أوهامهم سرى إليهم من شيوع تلك الفكر الخطئة أو الخاطئة بينهم ، فشيوعها هو الذى أوجد تلك الحال النفسية فيهم ، فهم الذين أفسدوا تفكيرهم ، ولم يكن الصوم هو السبب في تعويق فهمهم ، كما شاع بين الناس أن الصوم يضيق معه الخلق ويجعل الصائم سريع الغضب فتلك أيضاً من وهم الناس المسيطر ، فإن الصوم يصفى النفس من أدرانها ومن كان في هياج مستمر فهو من تسلط الوهم ، والأوهام قد تسيطر فتكون كالحقائق . والعيب حينئذ في الأشخاص وعدم فهمهم حقيقة الصوم لا من الصوم ؛ إذ هو برى عما يتوهمون ، وهكذا يضل الناس أنفسهم بأوهام يعيشون تحت ظلها ، فيفسد إدراكهم لمعنى العبادة فتشوق عليهم ، أو يكون منهم ما ينافي حقيقتها وينسبون ما فيهم إليها ، وهى منها براء .

١٠ — ولقد حدث في العام الماضى أن نشر في الصحف كلام ذى مقام رسمى في الدين يستفاد منه أن من يقوم بعمل عقلى شاق له أن يفطر ، وكان الطلبة في الامتحان يفهموا منه أنه يسوغ لهم أن يفطروا فجاء من ليس للدين حريجة في قلبه بالافطار ومن تخرج لم يفطر ، ومن كان على ثقة من أقوال الرسميين أفطر ، وتفاقم الأمر بين الشباب ، فسارعنا إلى المذيع وألقينا من فوق منبر الإذاعة أن هذه الرخصة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن على طلاب العلم أن يستعينوا بالصوم على حسن الإجابة ، وأن يعلموا أن استقامة الفكر من استقامة القلب والوجدان ، وسلامة التفكير من طهارة الضمير ، وأن العلم نور لا يضيء قلباً غشته المعصية ، وليستعينوا بالله ، ولا يطفئوا نور العلم بانتهاك حرمة الله ، وليتيمنوا بأن امتحانهم صادف رمضان فهى هدية الله إليهم فعليهم أن يقبلوها ولا يردوها ، وهو شهر ميمون ؛ فبشروا أيها الطلاب أنفسكم بيمينه وصوموه واعتمدوا على الله ، واعملوا وفوضوا الأمر إليه إنه بصير بالعباد .

١١ — وقبل أن نختم الموضوع نذبه إلى أمور — أولها — من أفطر عامداً متمعداً فعليه عند أبى حنيفة وأصحابه كفارة الصوم الكبرى وهى عتق رقبة ، فإن لم يجد

فصيام ستين يوماً ، فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً ، وقال أحمد والشافعي إن هذه الكفارة خاصة بمن جامع في رمضان ، وأما من أفطر بغير ذلك فالإثم عليه ويطعم مسكيناً . وفي المذاهب كلها عليه القضاء .

ثانيها — أن من أكل أو شرب ناسياً فعليه أن يتم صومه ، ولا قضاء عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة : « إذا أكل أحدكم أو شرب ناسياً فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » ولقوله عليه السلام : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ثالثها — أن من أخطأ فتناول مفطراً كمن أكل بعد الفجر ظاناً أنه لم يطلع ، وكمن سبق الماء إلى حلقه فدخل إلى جوفه غير عامد ولا قاصد ، فقد قال أبو حنيفة وأصحابه إنه يفطر ؛ لأنه لم يرد نص صريح بإمضاء صومه واعتباره ، فبقى على أصل القاعدة الشرعية ، وقال أحمد والشافعي لا يفطر ويتم صومه ولا قضاء ، لأن الخطأ والنسيان قد رفعاً عن هذه الأمة ، ولا مؤاخضة إلا بما تعمدته القلوب ، وما كسبته .

رابعها — أن دخول الماء من المسام من غير قصد لا يفطر كمن يستحم ، فنتشرب مسامه بعض الماء ، ويظهر الأثر في ذهاب ظمئه ، فإنه لا يفطر .

١٢ — وهنا نستطرد استطراداً وهو إدخال الأدوية بالحقن تحت الجلد أو في العرق أو في العضل أهى مفطرة ؟ إنه من البداهة أنه لا نص من صاحب الشرع فيه ، ولا نص عن أئمة الاجتهاد فيه إلا ما يروى من دخول الماء من بعض الجراح ، وهذا شيء غير الحقن ؛ لأن الحقن إدخال من المسام بعمد ومقصد ، فهـل يسرى عليه حكم العامد ؟

وإن الذي يبدو لي بادي الرأي أنه إن كان الحقن فيه غذاء يستفيد منه الجسم تغذية كالحقن المقوية فإنها تفطر لا محالة ؛ لأنه غذاء قد تحقق فيه معنى الإفطار من كل الوجوه وإن كان الحقن لتنقية الجسم من الجراثيم ، أو لتنشيط أعضاء خاملة من غير غذاء فإنها تكون غير مفطرة ؛ لعدم تحقق معنى الإفطار فيها . وإن في هذا لم أعتمد إلا على قضيتين : القضية الأولى معنى الصوم والمقصد منه والغاية للبتغاء من شرعيته ، وإن هذه القضية انتهت بي إلى اعتبار المغذى من الأمصال مفطراً وهذا في مرتبة البدهيات والقاعدة الثانية هي المشتقة من القرآن الكريم في قوله تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقد بنينا

على هذه القاعدة أن من يحقن بمصل علاجي لا غذاء فيه لا يفطر بالحقن ، وإن ذلك بلا شك يدخل في صفوف الصائمين المرضى الذين لا يستغنون قط عن الحقن العلاجي الذي يوجب الطب عليهم أن يأخذوه ليلاً ونهاراً .

هذا رأى ارتأيناه ، والأمر لا نص فيه ، إنما الفتوى فيه تستمد من لب الدين ومعناه ، ومن قواعده العامة التي جاء بها القرآن ، وكررتها السنة وأولها : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

١٣ — أما بعد فإن الصوم سموه بالإنسان وارتفاع به عن مراتع اللذات ؛ وهو عزاء الفقير ، وهو ضبط النفس ، وهو شكر النعمة ، فهل فهمه الناس ذلك الفهم ؟ هل فهموا أن الله شرعه ليعيش الفقير والغني عيشة واحدة طول النهار وطرفاً من الليل ، حتى يحس بالتجرد الروحي ؛ والعلو النفسي ، وأن الناس سواء ، وأن اللذائذ التي تفرق مجوها الصوم ليجتمع الناس ؟

لقد وجدنا الناس يتبارون في رمضان في إعداد مطارف العيش وملاذ الطعام ويغالون في ذلك مغالاة ترمض نفس الفقير ، وتتخم معدة الغني ، وينقلب شهر الروح إلى شهر طعام وشراب ، إلا أن ذلك يكون ليلاً بدل أن يكون نهاراً ، فأين التجرد الروحي في ذلك ؟ لقد وجدنا ناساً ينامون النهار كله في رمضان حتى إذا استفاقوا من نومهم أخذوا يسلمون أنفسهم بإعداد ألوان الطعام والاستمتاع بإعدادها ، حتى إذا أذن مؤذن المغرب انشالوا على الطعام في نهمة انشالا . ففي الطعام يفكرون طول الشهر ، يفكرون في النهار لإعدادهم ، وفي الليل لالتهامهم ؛ ثم يقضون بقية الليل في مسامرات يتلقونها القاريء كتاب الله أحياناً وهم عنه لاهون بأحاديث تقرض من كرامات الناس ، وهي الغيبة التي يأكل فيها المسلم لحم أخيه حياً . وإن أنصتوا إلى القاريء فلنكي يستمتعوا باللحن والغناء ، لا ليعتبروا بمواعظ الكتاب المبين .

إن رمضان في حقيقته الشرعية صيام بالنهار وقيام بالليل ما استطاع المؤمن إلى ذلك ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في العشر الأخيرة منه قياماً بحق التجرد الروحي فيه ، وليفهم الناس حق الفهم معانيه . ولكن تغير الناس اليوم إلى ما يرى وهكذا صارت كل العبادات مظاهر وألواناً ، تركنا فيها الجوهر والحقيقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الشيء الإسلامي

فنظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي

(٣)

قلنا في مقالنا السابق : إن تنظيم العالم الإسلامي ، وجمع شمله ، وتدعيم كيانه ، لصد كل عدوان عليه ، وتحرير كل بقعة فيه من ربة الاستعمار الأجنبي ، ومن ربة الفقر والجهل في داخله ، هذا التنظيم لا يتحقق بالتنى ، ولا بتبادل التواجد والتحسر على مجد غابر بقيت أطلاله ، وعلى رخاء باسق عفت آثاره ، وكرامة قومية أهدرها الغاصبون ، وحرية فردية عبث بها من لا يعى كرامة الإنسان . هذا التنظيم إنما يتحقق بعمل إيجابى ، وجهاز حكومى . يرسم الخطط المشتركة ، ويدبر وسائل تنفيذها ، ويعد الأداة اللازمة لهذا التنفيذ .

وقلنا إن هذا التنظيم الإيجابى يقوم على دعامتين :

١ — الدعامة الأولى : دستور محلى لكل دولة من الدول الإسلامية ، مستقلة أو فى طريقها إلى الاستقلال ، دستور يلتزم بمبادئ الإسلام الكلية ، ويختلف فى تفصيلاته من بلد إلى بلد تبعاً لمقتضيات البيئة ، ومستوى الثقافة فى كل شعب ، وظروفه المحلية الخاصة . على أن يتسع هذا الدستور المحلى للتعديل المتعاقب — ودائماً على ضوء مبادئ الإسلام الكلية — بحسب تطور ملاسبات البيئة ، وارتقاء المستوى الثقافى ، وانتقال الحياة المحلية من دور بدائى إلى دور تقدىمى .

٢ — الدعامة الثانية : دستور حكومى للعالم الإسلامى الشامل لهذه الدول الفرعية ، يقتصر نطاقه على تنظيم تعاونها وتكافلها فى أمرين : فى الشؤون الاقتصادية أولاً ، وفى الشؤون الخارجية والدفاعية ثانياً ، ثم إعداد أداة التنفيذ لهذين الاختصاصين ، وإعداد وسائله المادية التى تضطلع بتديرها الجهود المشتركة للدول الإسلامية .

ومتى وُضع هذا الدستور وارتضته الأمم الإسلامية جميعاً وأعدت أدواته التنفيذية ، ودُبرت الوسائل المادية لتنفيذه ، أدى للعالم كله أجل خدمة تنقذه من الانهيار الذى

يهدده ، وعلى الأخص من وجهتين : من وجهة توازن القوى العالمية ، ومن الوجهة الاقتصادية في رفع مستوى المعيشة لأكبر مجموعة من البشر تمتد أقاليمها من المحيط الهادى إلى المحيط الاطلنطى .

وإذن فدراستنا المتابعة في هذه السلسلة إنما تنصب على محاولة رسم صورة تقريبية لهذين الدستورين في خطوطهما الرئيسية .

ولنبداً بالدعامة الأولى : الدستور الإسلامى المحلى :

من طلائع التوفيق التى تؤذن بقرب بلوغ الأمنية التى تجيش فى قلب كل مسلم أنى عند ما شرعت فى وضع الخطوط الرئيسية لما يجب أن يكون عليه دستور إسلامى محلى ، ظفرت بالحصول على نسخة من مشروع الدستور الباكستانى ، وهو فى الواقع تقرير اللجنة التى عهد إليها وضع هذا الدستور ، أى أنه مجموعة توصيات هذه اللجنة ، صيغت فى فصول ومواد متتالية . ولكنه ليس مجرد توصيات نظرية ، بل هو برنامج دستورى شامل للسلطات والجزئيات على السواء .

وهو وإن كان دستورا اتحاديا Federal لمجموعة الأقاليم التى تتألف منها دولة الباكستان حاليا ، والأقاليم الإسلامية التى سوف تندمج فيها مستقبلا ، إلا إنى لازلت أعتبره — من وجهة نظر العالم الإسلامى ، وهى الوجهة التى نلتزمها فى هذه الدراسة — دستورا محليا لإحدى الأمم الإسلامية الكبرى : الأمة الباكستانية .

عكفت طويلا على دراسة هذا المشروع ، وانتهيت من هذه الدراسة إلى الاقتناع بأن هذا المشروع الدستورى قريب من المثل الأعلى الذى أنشده لدستور أمة إسلامية . ذلك لأنه التزم الخطوط الرئيسية التى فرضها الإسلام — القرآن والسنة — ثم راعى فى التفصيل والتطبيق مقتضيات هذا العصر . وحقاً علينا أن نجعله — من حيث المبادئ الكلية — أنموذجاً للدساتير الإسلامية المحلية .

يتجلى ذلك لأول وهلة فى المادة الأولى التى تحدد الأهداف التى التزمت الدولة الباكستانية بتحقيقها ، كما يتجلى فى المادة الثانية التى ترسم المبادئ الأساسية التى تقوم عليها سياسة الدولة . وفى سياق هذا التسجيل للأهداف والمبادئ رسم المشروع خيراً صورة لحقوق الأفراد والجماعة على الدولة ، وهى ما تسميه الدساتير الغربية « الحريات العامة » ، ولكن التصوير الباكستانى لهذه الحقوق والحريات قد بلغ من التعمق والإحاطة ما لم يبلغه دستور غربى . وفى ذلك البرهان الحاسم — وإن كنا فى غنى عن الدليل — على أن الإسلام إذا فهمه أهله حق الفهم استطاعوا أن يستخرجوا منه خير نظام حكومى تقصر دونه عقلية البشر .

تقول المادة الأولى في مطلعها :

« لما كانت السيادة على العالم كله لله القدير وحده ، وكانت السلطة التي منّ بها سبحانه وتعالى على دولة الباكستان عن طريق شعبها لتستعملها في الحدود التي رسمها جلّ شأنه ، هي أمانة مقدسة »

« فهذه الجمعية التأسيسية ، التي تمثل شعب باكستان ، قد اعترفت وضع دستور لدولة الباكستان المستقلة ذات السيادة ، طبقاً للأهداف الآتية :

« تستعمل الدولة سلطاتها واختصاصاتها بواسطة ممثلي الشعب المختارين .

« تلتزم الدولة في استعمالها لهذا السلطان بمبادئ الديمقراطية والحرية والمساواة

والتسامح والعدالة الاجتماعية كما رسمها الإسلام »

قف معي عند كلمة « السيادة » -- « السيادة لله وحده » -- وتأمل هذا التصوير

الإسلامي الجديد لفكرة السيادة ، بل قل هذا التصوير الإسلامي القديم الذي نسيناه ، فأصبحنا نخلع السيادة ، وما ينساب فيها من معاني الطغيان والتحكم المطلق على أفراد من البشر نذل لهم رقابنا ، ونلغى من أجلهم عقولنا .

السيادة في الإسلام لله وحده ، البشر جميعاً سواء أمام هذا السيد الواحد الأحد ، فلا استعلاء للمخلوق على مخلوق ، ولا امتياز لقوم على قوم بحكم المولد ، أو المنصب ، أو القوة ، أو الثروة .

نظريات السيادة التي ملأ بها فلاسفة الغرب مئات المجلدات ، وصاغ فيها فقهاء الغرب عشرات المذاهب ، كلها تنضال أمام هذا التصوير الإسلامي ، ولا تدانيه في بساطته ووضوحه ، وفي سمو أهدافه ، وفي عميق آثاره ، على تشكيل مصائر البشر .

ثم انتقل معي إلى متابعة هذا التصوير نستخلص منه بعض معانيه :

معنى أول هو أن هذه السيادة قد منّ الله بها على دولة الباكستان ، فهي إذن نعمة تستوجب شكر المنعم ، وشكر النعمة في الإسلام ينصرف إلى القيام عليها بحسن الاستعمال وحسن التدبير ، فالسيادة تقترن هنا من البداية بوجود حسن الاستعمال .

ومعنى ثان هو أن هذه السيادة التي منّ الله بها على دولة باكستان إنما منّ بها

على « الدولة » لا على فئة معينة ، ولا على فرد معين ، وفي هذا قضاء على النظرية التيقراطية في تفسير السيادة ، التي كانت تذهب في تصوير السيادة كأنما هي وحى

نزل من الخالق سبحانه وتعالى على فرد اصطفاه من خلقه ، تلك النظرية التي سيطرت

على التفكير الأوروبي طوال القرون الوسطى وما تلاها من العصور إلى حين انفجار

الثورة الفرنسية ، بل لا زالت أطلال هذا التفكير ماثلة في بعض ألفاظ جوفاء

واصطلاحات زمرية ظل ينتحلها ملوك أوروبا إلى عهد قريب ولا زالت ماثلة في مراسيم التتويج البريطانى إلى اليوم .

ومعنى ثالث هو أن هذه السيادة قد أنعم الله بها على دولة الباكستان « عن طريق شعبها » ، لتستعمل ما تنطوى عليه هذه السيادة من سلطات واختصاصات « بواسطة ممثلى الشعب المختارين » . وفى هذا خير تصوير للفكرة النيابية ، وخير تطبيق عملى لآية الشورى .

ومعنى رابع نشقه من ظروف الباكستان الخاصة ، هو أن نعمة السيادة التى أنعم الله بها على دولة الباكستان هى نعمة مزدوجة ، ولذلك كانت جديرة بالتتويه والتسجيل . فقد لبث أهل الباكستان قروناً متعاقبة يكافون أشد الكفاح فى سبيل استخلاص كيانهم وإنقاذ دينهم من كيد المستعمرين وعدوان المعتدين ، حتى جاءهم نصر الله ، فجمع شملهم فى دولة عزيزة الجانب لا سيادة فيها إلا لله وحده . وهم إذ يشكرون الله على هذه النعمة سيزيدهم من فضله ، فيرد إلى نطاق دولتهم ما زال من أقاليمها منبوذاً فى العراق .

ثم تضى المادة الأولى فى تعيين واجبات الدولة نحو الرعية ، فتقرر :

واجب الدولة تمكين المسلمين من تنظيم حياتهم ومعاشهم — فى النطاق الفردى والجماعى — بما يطابق تعاليم الإسلام وفرائضه كما رسمها القرآن والسنة .
« واجب الدولة تمكين الأقليات من ممارسة شعائر أديانهم وتنمية ثقافتهم فى حرية تامة » .

« تكفل الدولة الحقوق الأساسية من المساواة فى المركز وفى تكافؤ الفرص وأمام القانون ، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وحرية الفكر والتعبير والاعتقاد والعبادة والاجتماع ، كل هذا فى حدود القانون والآداب العامة » .
« تتخذ الدولة التدابير اللازمة لحماية مصالح الأقليات المشروعة ، والطبقات المتأخرة المستضعفة » .

هنا رسم الدستور الباكستانى فى أوجز عبارة صورة حية لواجب الدولة الإسلامية نحو رعيته . أما المسلمون منهم فتوى لهم نظاماً فى معيشتهم الفردية والاجتماعية يهتدى بتعاليم الإسلام وفرائض الإسلام من تعاون وتراحم وتكافل ، ومن العمل الجاد الصادق فى تعمير الأرض واستغلال ما أودع الله فيها من خيرات وموارد ،

ومن إعداد العدة لحماية الأوطان والذود عن حياضها ، ومن تغليب المصلحة العامة على الشهوات الفردية . وأما الأقليات غير المسلمة فليمارسوا شعائر أديانهم وليعملوا على تنمية ثقافتهم في حرية تامة تكفلها لهم الدولة . بل لقد نص الدستور الباكستاني في موضع آخر (المادة ٢١ والمادة ٩١) على جواز تولي المواطن الباكستاني غير المسلم أعلى منصب في الدولة ، منصب الوزارة ، سواء في الحكومة الاتحادية أو في حكومات الولايات .

ثم مضت المادة في تسجيل الحريات العامة التي عنيت بتسجيلها الدساتير الغربية من حرية الفكر والتعبير والاعتقاد والعبادة والاجتماع . ولكن تجربة الغرب أثبتت أن هذه الحريات لن يكون لها وزن ولا جدوى إذا لم تكفلها فرائض إيجابية تلتزم بها الدولة . أولى هذه الفرائض هي تحقيق المساواة بين المواطنين جميعاً ، ولكن على عكس أكثر الدساتير الغربية التي لم تعن إلا بالنص على المساواة القانونية عني الدستور الباكستاني أيضاً بالنص على المساواة في تكافؤ الفرص ، إذ ما تكون قيمة المساواة أمام القضاء وأمام أحكام القانون إذا انعدمت المساواة بين الناس في فرص تحسين حالهم وإصلاح أمرهم ، وكيف يتساوى من أتيحت له منذ مولده الفرص المتوالية للتعلم والكسب الميسور بمن حرم هذه الفرص فصار يشق طريقه في الحياة بغير عون أو مرشد ؟ أليس واجباً على الدولة أن تهنيء لرعيته جميعاً فرصاً متساوية للاستفادة بخيرات هذه الحياة ، يستوى في ذلك الغني والفقير ، والمجود والمحروم ؟ ذلك ما فرضه الإسلام وذلك ما أبرزه دستور باكستان .

وعندما نص على « العدالة » لم يكتف بالتعبير عنها تعبيراً مجرداً كما فعلت أكثر الدساتير الغربية ، بل فصلها تفصيلاً حكماً ، فقرن العدالة السياسية بالعدالة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية . وقد فشا انعدام هاتين العدالتين في المجتمعات الغربية حتى أصبح كيانها الاجتماعي والاقتصادي معرضاً لهزات عنيفة تنذر بانهايار وشيك ، لفقدان العدالة في توزيع الأجر بين القوى الإنتاجية في المجتمع ، فاستأثر بعض هذه القوى بالجزاء الأوفى ، وظل أكثرها محروماً من جزائه العادل ، الأمر الذي ولد الضغينة والبغضاء ، وأشعل حرب الطبقات .

ثم عاد مرة أخرى إلى الأقليات ولم يكتف بما فرضه من قبل من تمكينها من ممارسة شعائر أديانها وتنمية ثقافتها في حرية تامة ، لم يكتف بهذا لجاء يخصصها بعناية إيجابية مضاعفة ، إذ فرض على الدولة « اتخاذ التدابير اللازمة لحماية مصالحها

المشروعة» وذلك خشية أن تطفئ عليها عن غير قصد مصالح الأكثرية، وهذا إبداع في الرفق بالأقليات وخفض الجناح لها وإيثارها بكل طيب في الحياة. وهكذا ظفرت الأقليات في الباكستان بمكانة ممتازة لم يهبأ شيء منها قط — فيما نعلم — لأقلية مسلمة في بلد غير إسلامي. وهكذا ضرب الدستور الباكستاني الإسلامى المثل الأعلى في التسامح الدينى والأخوة الإنسانية.

ثم مضى الدستور فى مادته الثانية يرسم المبادئ التوجيهية التى تهيمن على سياسة الدولة، ولنسجل هنا نصها بالكامل:

١ — « الدولة تهتدى فى جميع سياساتها وجميع وجوه نشاطها بالأهداف التى رسمتها المادة الأولى.

٢ — «تتخذ الخطوات — وعلى الأخص الخطوات المذكورة بعد — فى جميع الدوائر الحكومية لتمكين المسلمين من تنظيم حياتهم الفردية والجماعية على ضوء القرآن والسنة.

(١) « يعمل كل تيسير لتمكينهم من فهم معنى الحياة على ضوء القرآن والسنة، ويكون تعليم القرآن للمسلم فرضاً إجبارياً. »

انظر إلى هذا التعبير الإسلامى البليغ معنى الحياة واقرأ قوله تعالى: «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور». هذا هو المعنى الإسلامى للحياة: إحسان العمل.

(ب) « تحريم الخمر، والميسر، والبغاء، فى جميع أوضاعها. »
وحسبك أن تجوس خلال الديار فى أرقى البلاد الغربية لتلمس ما فعلته هذه الآفات الثلاثة فى إشقاء شعوبها، ولترى ما بذله أهل الفضل فيهم من جهود جبارة وبذل فياض، سعياً إلى الحد من أضرارها، فتتجلى لك حكمة الإسلام فى تحريمها تحريماً باتاً.
(ج) « استبعاد الربا بمجرد ما يكون ذلك فى حيز الإمكان. »

أما الربا الناشئ عن قروض بين المواطنين فى داخل الدولة فإبطاله ميسور فوراً، وأما الربا الناشئ عن معاملات دولية فلا مناص من استبقائه إلى أجله، لأننا لا نستطيع أن نلزم مواطنى دولة غير إسلامية بالتنازل عن فوائد قروضهم إلينا، نزولاً على حكم الإسلام.

فإلى أن ينتهى أجل هذه القروض ويتم سدادها، وإلى أن تستطيع البلاد الإسلامية أن تقيم فيما بينها نظاماً للتعاون الاقتصادى يقدر على تمويل مشروعاتها

الاستثمارية إلى أن يتم هذا وذلك نذعن كارهين لحكم هذه الضرورة الوقتية ، والضرورة قد تبيح المحذور .

(د) « صيانة المُسئِل الإسلامية الأخلاقية » فالإسلام دين أخلاق واجتماع ، قبل أن يكون دين عبادة واعتكاف

(هـ) « تنظيم شامل لشئون الزكاة ، والأوقاف والمساجد » .

ومعلوم أن الزكاة إحدى فرائض الإسلام الخمس ، وفيها الغناء عن كل ما ابتدعه الغرب من تشريعات اجتماعية . وضرائب التأمين الاجتماعى Social Security ، والإحسان العام ، وكلها تشريعات معقدة ، عسيرة التنفيذ ، مكروهة من المكلفين بها ٣ - « إعداد أداة لنشر تعاليم الإسلام وتفقيه الشعب فيها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

٤ - « تُتخذ الخطوات الملائمة لتعديل التشريع القائم على نحو يجعله مطابقاً لمبادئ الإسلام وصياغة الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة بقدر ما يكون منها قابلاً للتقنين » فمن الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة ما يقبل التقنين ويستطيع الحاكم أن يصوغه في تشريع ملزم للرعية ، ويسهر الحاكم على نفاذه بما يسنه من جزاء ، ومنها ما لا يقبل التقنين ولا مناص من تركه لضمير الفرد ولرقابة الرب . فهذا تمييز دقيق يدل على تفقه واضع الدستور الباكستانى وعلو كعبهم في فن التشريع . ثم هو يبدأ بداية حكيمة : فقبل التشريع والتقنين يُعد الأداة الكفيلة بنشر تعاليم الإسلام وتفقيه الشعب فيها (الفقرة ٤) حتى يستغنى بالوازع النفسى عن الوازع العقابى ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

٥ - « تُتخذ الخطوات الملائمة لمنع وإحباط أى نشاط يتعارض مع أهداف الدستور الواردة في المادة الأولى » .

هنا مظهر من مظاهر العزم في الدولة الفتية . فمضى استقرار الرأى البصير على بلوغ أهداف معينة وجب نبذ التردد في ابتغائها ، ومكافحة الزيف عن سنتها . وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . فسلطان الدولة يجب أن يسخر في خدمة هذه الأهداف ، وفي إحباط كل سعى خبيث إلى عرقلة بلوغها ، ورد كل ناكص على عقبيه إلى الصراط المستقيم .

٦ - « على الدولة أن لا تدخر وسعاً لتوفير ضرورات الحياة كالغذاء ، والكساء ، والمأوى ، والتعليم ، والعلاج الطبى ، لجميع مواطنى الباكستان - مهما كان دينهم أو طبقهم - الذين يكونون عاجزين عجزاً مؤقتاً أو دائماً عن كسب عيشهم بسبب بطالة عارضة أو عاهة أو مرض أو أى عائق آخر » .

هنا تتجلى إحدى وظائف الدولة الإسلامية ، التى لم تفتن لها الأمم الغربية إلا منذ عهد قريب ، ولم تنهض بها إلا فى نطاق محدود : وظيفة كفالة الجماعة الإسلامية لجميع أفرادها ، وجميع مواطنيها القاطنين فى ديارها من غير المسلمين ، ولما كانت الدولة هى التى تمثل الجماعة من الوجهة النظامية فقد وجب أن تضطلع الدولة بهذه الوظيفة بالنيابة عن الجماعة ، وإنها لواجدة فى فريضة الزكاة مورداً فياضاً يعينها على تمويل مشروعاتها فى هذا الاتجاه .

ثم تنتقل المادة إلى رسم الخطوط الرئيسية لسياسة الدولة الاقتصادية ، فتقرر :
٧ - « يكون توجيه سياسة الدولة الاقتصادية على النحو الذى يحقق العيش الكريم لكافة المواطنين ، مهما كان دينهم أو جنسهم أو لونهم . وتستخدم هذه السياسة لإدراك المطالب الآتية :

- (أ) « رفع المستوى المعيشى لسواد الشعب » .
- (ب) « منع تركيز الثروة ومصادر الإنتاج فى أيدي فئة قليلة إضراراً بسواد الشعب » .
- (ج) « تحقيق توازن عادل لحقوق أعمال والزراع ، توازننا يحول دون استغلالهم » .
- ٨ - « على الدولة أن لا تألوا جهدها فى محو الأمية من البلاد فى أقصر وقت مستطاع » .

- ٩ - « على الدولة - فى أقصر وقت مستطاع - تمكين سكان الأقاليم المختلفة - بواسطة التعليم والتدريب - من مباشرة جميع أنواع النشاط الإنتاجى والخدمات القومية » .

أما رفع المستوى المعيشى لسواد الشعب فهذا يقتضى من جانب الدولة الدأب على تحقيق « التوظيف الكامل » لجميع موارد البلاد الطبيعية والبشرية حتى لا يبقى فيها مورد عاطل أو راكد ، ثم العمل على أن يكون توزيع ثمار هذا الإنتاج على العاملين فيه توزيعاً عادلاً ، فلا تحابي فئة على فئة . ولا يطفى المنتج الصناعى على المنتج الزراعى ، ولا ذوو المال على الكادحين بأيديهم أو ببقولهم .

ثم على الدولة أن تكافح تركيز الثروة ومصادر الإنتاج فى أيدي فئة قليلة ، وهذا لا يتعارض مع اتساع أفق الإنتاج ، واتساع أحجام المشروعات ، والأخذ بالتكامل الإنتاجى integratoin طالما استقامت هذه الأساليب مع جودة الإنتاج وإقلال تكاليفه

وبشرط أن تكون ملكية مصادر الإنتاج شائعة في جمهور الشعب ، لامركزية في أيدي فئة قليلة تتحكم في تحديد الأثمان وإرهاق المستهلكين . بعبارة أخرى : على الدولة الإسلامية أن تمنع نشوء الاحتكار الذي أصبحت تئن منه اقتصاديات الأمم الكبرى ، بل امتد أذاه إلى الاقتصاديات الدولية ، بعد أن نجح الاحتكاريون في إقامة احتكارات عالمية تهيمن على سياسات الدول وتسيطر على مصائر البشر .

ثم تتجه المادة إلى إبراز الطابع الإسلامي للدولة الباكستانية ، في الداخل وفي الخارج : ففي الداخل تسعى إلى تحقيق لاتحاد الشعبي والقضاء على العصبية الطائفية أو الجنسية ، وفي الخارج تسعى إلى تقوية أواصر التعاون الوثيق بين الدول الإسلامية ريثما يتحقق ارتباطها جميعاً بميثاق واحد ، وبولاء واحد لدولة اتحادية كبرى تجمع شمل العالم الإسلامي .

أما في صلات الدولة الباكستانية بالعالم الخارجي غير المسلم فالمادة تسجل هنا رسالة الإسلام الإنسانية في تدعيم السلم والأمن والوثام بين شعوب الأرض جميعاً . وهذا نص هذه الفقرات :

١٠ — « على الدولة أن تحارب بين مسلمي الباكستان النزعات غير الإسلامية سواء كانت طائفية أو قبلية أو جنسية ، وأن تفرس في نفوسهم وحدة الملة ، وتربي فيهم سجية التضامن وماترمى إليه هذه الوحدة . وهذا التضامن من أهداف أنشئت لتحقيقها دولة الباكستان » .

١١ — « على الدولة أن تقوى أواصر الوحدة بين الدول الإسلامية جميعاً » .

١٢ — « يجب على الدولة أن توجه جهودها إلى تدعيم السلم والأمن والوثام بين شعوب الأرض جميعاً » .

هنا تتقدم الدولة الباكستانية — كدولة إسلامية مثالية — وتمديدتها إلى جميع الدول الإسلامية الأخرى . وتتطوع مشكورة في السعي إلى تقوية أواصر الوحدة بينها حتى ينتهي المطاف إلى إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى .

ثم هي تعلن للعالم أجمع أنها لا تضمر عداً أو كراهية لشعب من الشعوب ، بل هي تفرض على نفسها أن تكرر جهودها لاحتلال الوثام محل الخصام ، والتواد محل التقاطع ، سعياً إلى تدعيم السلام في الأرض وتأمين الشعوب جميعاً .

أما الفقرات الباقية فى هذه المادة فلا يتسع هذا المقال لاستكمال التعليق عليها .
ولكننا نشير إشارة سريعة إلى أهم عناصرها .

فالفقرة ١٣ تقرر : « لا ينتخب رئيساً للدولة إلا الشخص الذى يتوافر فيه — فى رأى الناخبين — فضائل القدرة ، والخلق المتين ، والنزاهة ، والتقوى ، والكفاية لتصرف شؤون الدولة طبقاً لأهداف الدستور » .

وفى موضع آخر من مشروع الدستور (المادة ١٦ من الباب الثالث) جعلت رئاسة الدولة لأجل موقوت — خمس سنوات — وجاء الفصل الأول من هذا الباب الثالث مفصلاً لسائر أحكام هذا المنصب الذى لا ينهض به إلا مسلم . ولنا عودة إلى استيفاء هذا الموضوع الدقيق ، والموازنة بين حجج القائلين بالتوقيت والقائلين بامتداد المنصب بغير قيد زمنى . وإن كنا نؤثر التوقيت لأنه أكثر انسجاماً مع حسن الاضطلاع بأعباء هذا المنصب فى العصر الحاضر .

أما الفقرة ١٤ والفقرة ١٨ فتضعان مبدأ رئيسياً فى شأن القضاء ، فالأولى تقرر وجوب العمل على فصله عن السلطة التنفيذية لكي يتوافر له استقلاله ، والثانية تقرر مبدأ جديداً لم يرتق إليه إلى الآن التفكير الدستورى الأوروبى ، وهو مجانية التقاضى ، فلا رسوم كثيرة أو قليلة تؤود كاهل الفقير الضعيف وترده عن الالتجاء إلى ساحة القضاء للاتصاف من بغى الغنى أو عدوان القوى . وهذه أول مرة فى تاريخ التنظيم الحكومى تقرر فيها مجانية سلعة العدالة .

وهذا نص هاتين الفقرتين :

١٤ — « على الدولة أن تتخذ فى خلال ثلاث سنوات الإجراءات التى تكفل تحقيق الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية » .

١٨ — « على الدولة أن تتخذ ما يكفل حصول الناس جميعهم على حقهم فى الانصاف عن طريق القضاء بغير أداء رسوم للدولة » .

ثم تعود المادة للمرة الثالثة (فى الفقرة ١٥) إلى تسجيل حذب الدولة الباكستانية على أقلياتها غير المسلمة ، إذ تقرر : « على الدولة أن تحمى جميع الحقوق والمصالح المشروعة للأقليات غير المسلمة » .

لم يبق فى هذه المادة — مادة المبادئ الرئيسية إلا فقرتان ، إحداها (الفقرة ١٦) لها صبغة اقتصادية وهدف اجتماعى ونصها : « على الدولة أن تكفل للأطفال والشباب الحماية من الخضوع للاستغلال ، أو الزوج بهم فى مهن لاتلائم سنهم أو جنسهم » . والثانية

(الفقرة ١٧) ذات صبغة مالية إدارية ونصها : « على الدولة أن تدبر المعونة المالية لمن كان يعولهم موظفو الحكومة الذين يتوفون قبل بلوغ سن المعاش وبدون أن يكون لهم ما يقوم بأود عيالهم » .

وبعد فإننا لم نصل في تعليقنا السريع على مشروع الدستور الباكستاني إلا إلى مادتين : مادة الأهداف ومادة المبادئ الرئيسية . وهو يتألف من مائتين وخمس وخمسين مادة ، والكثير منها حافل بتنظيمات حكومية وإدارية ومالية ، جذيرة بالابراز والتعليق ، وسنعود إلى استيفاء التعليق عليها في المقال القادم إن شاء الله . ومنذ الآن أهيب بجميع الأمم الإسلامية أن تتدارس هذا المشروع الذي فصل لأول مرة نظام الحكم الإسلامي على ضوء مطالب العصر الحاضر ، وأن تقتبس منه ما يلائم بيئتها وظروفها المحلية مادامت تلتزم في هذا الاقتباس أصول الإسلام الكلية .



اعتراف كريم

لو عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع أوربا لبلغت أوج المدنية وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ولما كانت أمريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر وأسبق مما وقع لها . ولما كان النوع البشري بأسره اليوم متمتع بثروة ورفاهية ورقى وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالى سنة ٢٥٠٠ م .

« جوزيف مالك كيب »

العصبية الإسلامية فوق العصبية

لأبي نعمان المهاجر

(٢)

نعود إلى مزيد من البيان لما تقتضيه الآية الكريمة التي أوردناها في الحديث السابق — قل إن كان آباؤكم . . . الخ — في هذه الآية الكريمة ذكرت أكثر أسباب الحياة : الآباء والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن ، وهذه هي أهم عناصر الوطنية والقومية تقريباً ، وقد وضعت إزاءها فكرة الإسلام ورسائله في شيء من المقارنة الرائعة المقتنعة ، التي تأخذ بالعقول والألباب ، المقارنة بين عظمة الله ورسوله وشريعة الجهاد في سبيله ، وبين هذه الأشياء من أميـاب الوطن وحاجاته ، مما يدلنا دلالة واضحة على أن فكرة الإسلام جاءت لتحل محل النوازع الإقليمية والعنصرية ، أو جاءت على الأقل لتكون أسمى منها في نفوس المسلمين وليكون لها القول الفصل ، والكلمة العليا إذا تعارضت الفكرتان في حال من الأحوال . وإذا نحن تدبرنا روح السيرة المحمدية ، وتعمقنا في بحث أسرارها وأصولها الأساسية ، وانجاهاتها العامة وجدناها تنطبق — وهذا أمر طبيعي — على روح هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات القرآنية أتم الانطباق .

وها نحن نسرد قصة حادثة من الحوادث في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام تصور لنا الهوة البعيدة التي كانت تفصل بين مبدأ العصبية القومية وبين مبدأ الإسلام : يروي أهل السيرة : أن أحد المنافقين يقال له « قزمان » وكان بطلاً شجاعاً ولكنه تخلف عن الذهاب مع المسلمين في غزاة « أحد » فلما أصبح غيره نساء بنى قومه فقلن له : يا « قزمان » قد خرج الرجال وبقيت أنت يا قزمان ألا تستحي بما صنعت ؟ ما أنت إلا امرأة خرج قومك وبقيت في الدار ؟ قالوا : فأحفظنه بهذا التقرير فدخل بيته فأخرج قوسه وجعبته وسيفه وخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوي صفوف المسلمين فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه ، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين ، وجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ، وإنه ليكت كتبت الجمل ، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل ،

(٣)

فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه ، وجعل يقول : الموت أحسن من الفرار ، يا للأوس ، قاتلوا على الأحساب ، واصنعوا مثلاً أصنع . قالوا : فیدخل بالسيف وسط المشركين حتى يقال : قد قتل ، ثم يبدو فيقول : أنا العلام الظفري ، وما زال على ذلك يعمس نفسه في لجة الموت حتى قتل من المشركين سبعة وأصابته الجراح وكثرت فيه فوق فر به قتادة بن النعمان فقال له : أبا الفيداق ، قال قزمان : لبيك ، قال : هنيئاً لك الشهادة : قال قزمان : إني والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سلعنا ، قالوا : فآذته الجراح فقتل نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هو في النار » .

في هذه القصة تتجلى لنا أمور عديدة :

أولاً — أن هذا الرجل الشجاع ضحى بحياته تضحية يعزُّ لها النظر .

ثانياً — أنه كان ذا غناء عظيم للمسلمين في هذه المعركة .

ثالثاً — أن المسلمين كانوا معجبين ببسالته وبلائه وأنهم كانوا يظنون به الإسلام بدليل أن قتادة بن النعمان — ويظهر أنه كان على معرفة به — هنأ بالشهادة مما يدل على أنه كان يعتقده مسلماً حقاً .

رابعاً — أنه لما هنأ بالشهادة رد عليه « قزمان » ينفي حقيقة الشهادة عن نفسه ويعلل ذلك بأنه لم يقاتل عن دين ، وإنما قاتل على الأحساب مما يبرهن بصورة واضحة أن القتال على الأحساب يناقض حقيقة الإسلام مناقضة ظاهرة بلغ من ظهورها أنه أصبح يعرفها حتى المناقون .

خامساً — أن كل بلائه العظيم ، وكل تضحياته الرائعة لم تغن عنه من الله شيئاً لأنه لم يقتل في سبيل الإسلام إنما قتل في سبيل نعمة قومية ، ولهذا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما سئل عنه قال : هو في النار ، أو قال : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . ولا ريب أن هذه القصة الصغيرة تبرهن على أن الناس جميعاً كانوا يفهمون على البداهة أن الفكرة الإسلامية تتنافى مع العصبية العرقية ، وتختلف معها اختلافاً كثيراً والواقع أن المظهر الأول للإسلام في ذلك العهد كان يتجلى في أن الرجل الذي يقتنع بالدخول في دين الإسلام كان أول عمل يعمل به بعد أداء الشهادتين هو أن يقطع صلته بقومه وعشيرته إذا لم يكونوا قد أسلموا وينحاز إلى جماعة المسلمين ، وكانوا في العادة من

غير قبيلته فتتغير عواطفه نحو قومه تغيراً عظيماً هائلاً فبعد أن كان يقاتل دون كل فرد منهم بدافع من الطبيعة والغريزة أصبح يقاتل كل فرد منهم بدافع الإيمان بالفكرة الإسلامية التي حلت محل الغرائز والنزعات المعروفة واكتسحتها وقضت عليها . فلا جرم لو أن الإسلام لم يحارب النعرة القومية ، ولم يعتبرها سمة من سمات الشرك ونزعة من نزعات الجاهلية لكان من المتعذر أن تنشأ في جماعة المسلمين الأولين عاطفة إسلامية مشتركة ، وهم كانوا خليطاً من قبائل عديدة مختلفة ، كان بين الكثير منها خصومات ودماء وأحقاد ، ولكن من المتعذر أيضاً أن يتأني للنبي عليه الصلاة والسلام تجنيد أصحابه وسوقهم إلى قتال قومهم وذوى عصبيتهم من المشركين ، وهذا هو السبب في أن المشركين يوم « بدر » كانوا مترددين في قتال المسلمين لأنهم لم يتعودوا هذا النوع العجيب من القتال بين أبناء العشيرة والقبيلة الواحدة ، وكانوا يستفظعون هذه الحرب ويستعظمونها بينما كان المسلمون قد استبدلوا بالحمة العرقية حمة الإسلام فحمت بها عزائمهم وامتلات بها صدورهم ، وأرهفت عليها صوارمهم ، فكانوا أشد على خصومهم بأساً وأشد تنكيلاً .

وقد كان هذا التفاوت بين الفريقين عظيماً يوم « بدر » فبالرغم من أن الكثرة كانت في جانب المشركين فإنهم كانوا يقاتلون عن غير عقيدة ولا فكرة ، لهذا تخاذلوا واندحروا وأيد الله المسلمين تأييداً حاسماً ، حتى آمن الله في ذلك على نبيه عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وهذه الآية تشعر بأن الألفة بين المؤمنين والأخوة الإسلامية بينهم كانت في مقدمة أسباب النصر والتأييد ، والتفوق المعنوي على المشركين ؛ لذلك جاء بعدها قول الله عز وجل : « يأياها النبي حرض المؤمنين على القتال » . . . الآية .

المجلد الأول : « من المسلمون »

اقتضت إعادة طبع العديدين الرابع والخامس من السنة الأولى — على كره منا — أن نرفع ثمن المجموعة المجلدة تجليداً أنيقاً إلى جنيه مصري ونصف ، ونرجو من الراغبين المبادرة إلى إرسال القيمة سريعاً مع الاسم لكتابته على المجلد . وعدد المجموعات محدودة .

وصية ملهم :

العقبات في طريقنا

للامام الشهيد حسن البنا

أيها الإخوان : أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لازالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأت تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تهمدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم ، وستجدون من أهل الدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحمد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم .

وسيتذرع الفاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان .

وسيشير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس في أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتمدين بأموالهم ونفوذهم : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان ؛ فتسجنون وتعتقلون وتنقلون وتشردون وتصادر مصالحكم وتمطل أعمالكم وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصره المجاهدين ومشوبة العاملين المحسنين « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . . . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟

أيها الإخوان المسلمون ، اسمعوا :

أردت بهذه الكلمات أن أضع فكرتكم أمام أنظاركم فلعل ساعات عصية تنتظرنا يحال فيها بيني وبينكم إلى حين ؛ فلا أستطيع أن أتحدث معكم أو أكتب إليكم ، فأوصيكم أن تدبروا هذه الكلمات . وأن تحفظوها إذا استطعتم وأن تجتمعوا عليها . وإن تحت كل كلمة لمعان حمة . . .

أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسرى في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ؛ ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله ؛ وصوت داو يعلم مردداً دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس . إذا قيل لكم إلام تدعون ؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه ، فإن قيل لكم هذه سياسة ! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام ، وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة ! فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقد ونعتز به ؛ فإن ثرتم علينا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم النافرين الظالمين ، وإن قيل لكم إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا : « آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنتم به مشركين » فإن لجئوا في عدوانهم فقولوا : « سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » .

مجتمع إسلامي

الأستاذ سيد قطب

(٢)

أما القتال فقد شرع لغرض آخر . . . شرع للدفاع عن حرية المسلمين الذين أودوا فعلاً بسبب عقيدتهم ، وأخرجوا من ديارهم ، لغير ما سبب إلا أن يقولوا : ربنا الله . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللَّهُ . وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ . وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » (١) .

ومع أن صدر هذا النص يكشف عن السبب المباشر في الإذن للمسلمين بالقتال ، فإن بقيته تبين حكماً عاماً في مشروعية القتال . وغاية الله من نصر من ينصرهم فيه . وذلك هو ضمان حرية العقيدة عامة للمسلمين وغير المسلمين وتحقيق الخير في الأرض والصلاح . فهو يقول : إنه لولا مقاومة بعض الناس وهم المؤمنون لبعض الناس وهم الظالمون « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » والصوامع معابد الرهبان والبيع كنائس النصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، والمساجد مصليات المسلمين . وهو يقدم الصوامع والبيع والصلوات في النص على المساجد تأكيداً لدفع العدوان عنها . فهي إذن دعوة إلى ضمان حرية العبادة للجميع واحترام أماكن العبادة جميعاً . ثم وعد بالنصر الذي يؤدي إلى تمكين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر العابدين لله ، الباذلين أموالهم للعفة . . .

فالإسلام لا يريد حرية العبادة لأتباعه وحدهم . إنما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة . ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع ، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية . راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر ، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين ، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبمحماية المسلمين .

ومع الإذن للمسلمين بالقتال لتحقيق هذا الغرض ، فإنهم أمروا ألا يعتدوا ، وحددت لهم الأحوال التي يجب فيها القتال لتحقيق ذلك الغرض والتي فيها لا يجوز . فهم مكلفون أن يقاتلوا من يقاتلونهم ، ومن يفتنون فريقاً منهم عن دينهم — والفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على أخص خصائص الإنسان ، وهي حرية الوجدان — وهم منهيون عن الاعتداء ، وعن قتال أعدائهم في الأمكنة والأزمنة التي يحرم فيها القتال إلا إذا بدأوهم بالقتال :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ ، وَأُخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أُخْرِجُوكُمْ . وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ . وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ . فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(١) » .

وهنا نجد كذلك أن الغاية من هذه الحروب هي دفع العدوان بدون اعتداء ، ودفع الفتنة عن الدين وترك الدين لله . والقاعدة العامة هي أن لا حرب إلا مع المحاربين ومع الطغاة الذين يصدون الناس عن دينهم ظالمين . ولا عدوان إلا على الظالمين . هنالك فريق آخر يدعو الإسلام إلى حربهم حرباً وقائية . أولئك الذين ينقضون معاهداتهم السلمية مع المسلمين ، ويكررون هذا النقض ، بحيث يبقى المسلمون في قلق من خيانتهم في كل لحظة ، فعلى المسلمين أن يعلموهم بنيت ما بينهم وبينهم من معاهدات . . . ولكن حتى هؤلاء ليس المسلمين عليهم من سبيل إذا هم آثروا السلم وجنحوا إليها واختاروها :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ

ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تشققهم في الحرب فشرذ بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين^(١) .

وهناك راية أخرى يحارب تحتها الإسلام كما قلنا . راية حماية الضعفاء من الظلم . الظلم كافة قياماً بشريعة الله في العدالة الإنسانية بغير ما غاية سوى تحقيق كلمة الله في سبيل الله :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ؟ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً^(٢) »

وإذن فهي الحرب كذلك لدفع الظلم والظغيان ، لا للاكراه على العقيدة ، ولا كراهية للآخرين بسبب العقيدة . إنما هي الوسيلة العملية لدفع الظلم وإقامة العدل ، وتحقيق الأمن وحماية الضعفاء .

وفيما عدا تلك الأغراض التي استعرضنا ، لا يحتسب الإسلام للمسلم أجراً في قتاله ، ولا يقبل منه جهاداً ليس في سبيله . . جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى . فمن في سبيل الله قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله^(٣) » . وكلمة الله هي إحقاق الحق ، ودفع الظلم ، وحرية العقيدة ، على النحو الذي أسلفنا .

وتسكلمة لإيضاح شبهة التعصب الإسلامي ، التي تعرض لمن لا يعرفون حقيقة الإسلام نستعرض بعض النصوص القرآنية الأخرى ، التي يعتمد عليها المشقون والمعرضون : جاء في القرآن الكريم : « إن الدين عند الله الإسلام^(٤) »

(١) الأنفال : ٥٥ — ٦٢

(٢) النساء : ٧٤ — ٧٦

(٣) أخرجه الشيخان

(٤) آل عمران : ١٩

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ^(١) » . . فما المعنى المقصود من كلمة الإسلام في هاتين الآيتين ؟

إن الإسلام تمشياً مع طبيعته العالية . قد احتضن الرسالات والديانات كلها من قبله وقرر مع وحدة الإله ، وحدة العقيدة ، ووحدة الدين الذي أرسل الله به رسله جميعاً فكل الرسل جاءوا بدين واحد ، هو الإسلام . إسلام القلب لله وحده بلا شريك . وهذا هو أساس العقيدة الذي لا يتبدل . أما التشريع الذي ينظم حياة الجماعة فهو الذي يتطور في الرسالات الإلهية على أيدي الرسل ، تبعاً لمصلحة البشرية ودرجة نموها . وتطور إدراكها . . . حتى إذا جاء الإسلام في صورته النهائية التي جاء عليها في رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — كان قد احتضن الفكرة الأساسية في دين الله الواحد ، واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم في الرسالات السابقة ، وأكمل الناقص منها وأتمه : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ^(٢) » .

وإذن فكل من مات مسلماً لله من أهل كل ديانة قبل أن تأتي الديانة التالية ، فقد مات على (الإسلام) وقبل الله منه إسلامه وعلى الله حسابيه فيما أحسن أو أساء : « بلى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ^(٣) » . « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ^(٤) » .

فأما بعد رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد أصبح الدين هو الإسلام في صورته الأخيرة « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه ^(٥) » . . جامعاً للأصول الثابتة في الرسالات قبله فمن ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه .

ولكن القبول وعدم القبول إنما هو مسألة بين الرب والعبد . ولا تعنى بأية حال إكراه غير المسلمين على الإسلام . إنما هذا بيان لهم من الله ، وموعظة أن يسارعوا إلى دين الله كما أراده الله وألا يتشبثوا بصور من هذا الدين فات أو أنها ، وأدت دورها في حينها ، ولم تعد صالحة بعد هذا الأوان ، إذا هم رغبوا في طاعة الله ، وحرصوا على رضاه . فإن تولوا فإنما أمرهم إلى الله .

(١) آل عمران : ٨٥

(٢) المائدة : ٣

(٣) البقرة : ١١٢

(٤) البقرة : ٦٢

(٥) المائدة : ٤٨

« قل : يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون (١) » .

ويحسن أن نعرض هنا بعض النصوص في وحدة العقيدة ، وفي بيان أن كل دين كان هو الإسلام في صورة من صورته الموحدة الأصل . ذلك أن هذه النصوص تكشف لنا عن الطبيعة العالمية للإسلام ، باحتضانه كافة العقائد السماوية قبله ، واحترامها ، واحترام أنبيائها وأتباعها ، ومودته للمؤمنين منهم ، وسماحته بحرية العبادة حتى لمن لم يؤمنوا به ، ما لم يقاوموه ويحادوه :

في سورة الأعراف ترد قصص نوح وهود وصالح متجاورة ، فيرد فيها نص واحد على لسان هؤلاء الأنبياء في دعوتهم إلى أقوامهم منذ أقدم الرسالات :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره (٢) ... »

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره (٢) ... »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره (٢) ... »

وفي سورة البقرة دعاء على لسان إبراهيم وإسماعيل في أثناء قيامهما ببناء البيت الحرام يقولان فيه : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (٣)

وحكاية كذلك عن إبراهيم ويعقوب والأسباط : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أُسْلِمْ قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ ، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبدُ إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون » (٤)

وهكذا يتضح أن الرسل جميعاً جاءوا برسالة واحدة هي عبادة الله وحده بلا شريك وهي الإسلام في معناه العام . وعلى أساس هذا كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط « مسلمين » (٥) .

وتبعاً لهذه الحقيقة الكلية يؤمن المسلمون بالرسول جميعاً ، ولا يفرقون بينهم ،

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الأعراف : ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٣

(٣) البقرة : ١٢٨ (٤) البقرة : ١٣٠ — ١٣٣

(٥) يراجع فصل « القصة في القرآن » في كتاب « التصوير الفني في القرآن »

ولا يكرهون دياناتهم ، ولا أتباع هذه الديانات ، وكل ما يطلبونه منهم أن يؤمنوا هم كذلك بما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — مصداقاً لما بين أيديهم ، فإن لم يستجيبوا فهم وما يشاءون ، وليدعوا المسلمين آمنين ، يبلغون دعوتهم للعالمين :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ^(١) » . . « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم ^(٢) » « يتبع »

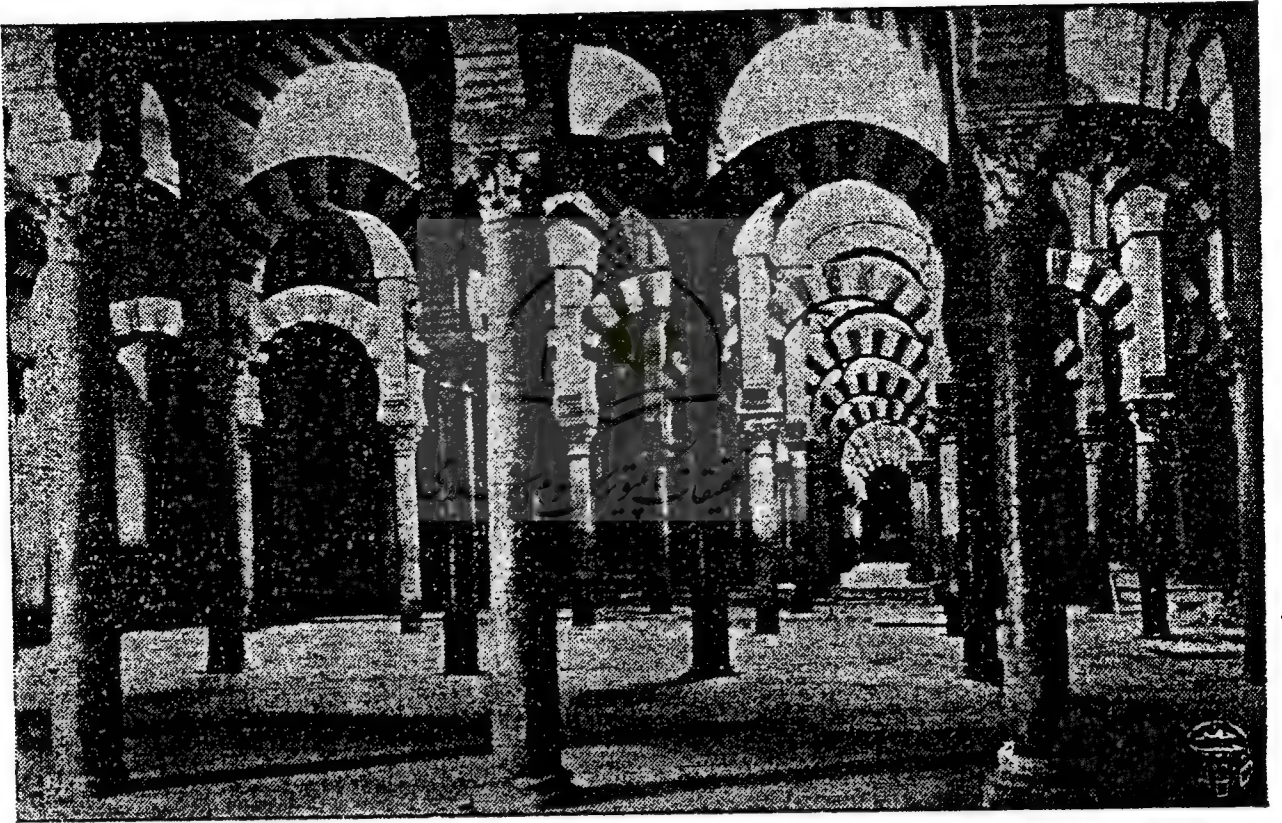
لا إفراط ولا تفريط

إن حواسنا لا تستطيع أن تدرك الإسراف ، فالضجة الكبيرة تصم آذاننا ، والضوء الكثير يعمينا والأشياء البعيدة جداً والقريبة جداً لا نراها ، والطويلة جداً والقصيرة جداً لا نفهمها ، والحقائق الكثيرة تهتنا .

« العالم بليز باسكال »

في مسجد قرطبة!

كان ذلك يوم الخميس ٢٧ من رجب سنة ١٣٧٠ - ٣ من مايو سنة ١٩٥١ ، ووصل القطار في الساعة صباحاً إلى قرطبة ويسمىها الأسبان (Cordoba) ، ووضعت أمتعتي في فندق سيمون ... ومن طريق ما صادفت في هذا الفندق صبيان ظريفيان فيهما سحنة عربية ، همس أحدهما في أذني عبارة أسيانية فهمت منها أنه من أصل عربي ! وخرجت إلى المدينة لأشهد معالمها ، فإذا باليوم يوم « عيد النصر » : انتصار النصرانية ، وهو عيد ديني مقدس تعطل له الدوائر الرسمية ، ويرتدى فيه الأطفال لباس الفرسان الصليبيين ويخرجون في الشوارع والطرق على صدورهم الصليبان وفي أيديهم الأناجيل ... وقصدت إلى مسجد قرطبة ... وهو المسجد العظيم الذي بناه عبد الرحمن الداخل في أوائل القرن الثاني . طوله : ١٧٥ متراً ، وعرضه ١٣٤ متراً ، وارتفاعه : ٢٠ متراً ؛ وكان فيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ،



مسجد قرطبة

وكانت قبته التي أزيلت ليقام مقامها الكنيسة تقوم وحدها على ١٦٣ عموداً ... ومثدته التي علقت بها الأجراس لا تزال شاهقة رهيبة ... وأما كن الضوء المهجورة كما هي ، والمحراب الرائع المذهل يكاد يسمعك قرآن صلوات كثيرة شهدها هذا المسجد حين كان عدد المسلمين في قرطبة وحدها نصف مليون ! ! وليس فيها اليوم مسلم واحد وقد وقت أنأمل المحراب طويلاً وأنا أسمع ترنيمات نصارى قرطبة وهم يصلون إلى جانب المحراب ! ! وانتابني إذ ذاك حيرتان أليمتان : حيرة بين وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ألا تزين المساجد وبين ما أرى من فن أخاذ لعل ما فيه من ترف هو بعض ما أودى بالمسلمين ، وحيرة أخرى بين أن أعترف بالمسلمين حين كانت أوروبا تسكن الأكواخ ... وأن أطأ طيء الرأس من ذل الواقع المر الذي يتله كل ما حولي ... وأخيراً غلبني الحياء العزيز فانصرفت منقطر القلب ! !

من فقه القرآن والسنة

شروط البيع

للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٣)

عزم الربا :

عندما نزل قوله تعالى في سورة البقرة : « وأحلّ الله البيع وحرم الربا » ، مضافاً إلى ذلك ما جاء في آيات أخرى وفي السنة النبوية من النهي عن الربا ، عرف المسلمون أن الربا في جميع صورته وألوانه محرم شرعاً ، وإذاً يكون العقد الربوي عقداً باطلاً بإجماع الأمة .

حقيقة ، إن علماء الفقه قد اختلفوا في أن الآية التي ذكرناها عامة في تحريم كل ربا ، وإذاً فلا تحتاج لبيان آخر من الكتاب أو السنة ؛ أو هي من قبيل المجمل ، فلا بدّ له من بيان نعرف منه الربا المحرم . هذا الخلاف وجد حقاً بين الفقهاء ، ولكن الصحيح من الآراء أن الآية من قبيل العموم الذي لا يحتاج لبيان آخر ، فيكون كل ربا محرماً مهما كانت صورته . ولهذا ، نجد القاضي أبا بكر بن العربي يشتد في نصرة هذا الرأي ، حتى يقول : « إن من زعم أن هذه الآية مجملة لم يفهم مقاطع الشريعة » إلى آخر ما قال (١) .

ليس لنا إذاً أن نطيل في الحديث عن حرمة البيوع الربوية وبطلانها ، فذلك أمر أجمع عليه المسلمون في كل عصر مستندين لنص الكتاب والسنة ، ولكن هناك من البيوع ما يشبه فيها الحال ، فقد يرى البعض أنها ربوية فيحرمونها ، على حين لا يرى آخرون ذلك فلا يرون فيها بأساً . ومن هذه البيوع بيع الوفاء ، وبيع العينة . ولذلك نرى أن نتناول كلا منهما بكلمة لعلها تجلو وجه الحق وتبين عن الحكم الواجب الاتباع .

(١) أحكام القرآن ، ١ : ١٠١ - ١٠٢ . وانظر القرطبي ٣ : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، والجلصاس ١ : ٤٦٤ - ٤٦٥ ، ففيهما أن الآية مجملة احتاجت إلى بيان قد جاء في الآيات والأحاديث الأخرى ، فيكون الاتفاق تاماً بين الجميع على حرمة كل ما يطلق عليه لغة وشرعاً أنه ربا .

بيع الوفاء :

هذا البيع معروف في الريف بصفة خاصة ، والناس منه في أمر مريح ؛ فمنهم من يقدم عليه بدافع الحاجة ، ومنهم من يحجم عنه توقيا للربا وشبهته . وصورته أن يبيع إنسان قطعة من أرضه مثلاً بثمن معلوم ، على أن يردّها له المشتري أو يبيعها له ثانياً إذا رد له الثمن الذي أخذه منه في مدة يحدّدانها .

وقد اشتهد في حكمه الشرعي اختلاف العلماء ، لأنه ليس من السهل تكييفه قانوناً . فإن له صورة البيع كما هو معروف ، وفيه بعض أحكامه المقصودة من البيع كانتفاع المشتري بالمبيع الذي اشتراه . كما أن فيه معنى الرهن ، بل قيل إنه رهن حقيقة ما دام قد اشترط فيه أن يرد المشتري ما اشترى إذا دفع له البائع ما أخذ من الثمن بعد حين ، ولكن في الرهن ليس للمرتهن — وهو هنا المشتري — الانتفاع بالشئ المرهون ، وأخيراً ، فيه شبه من الإقالة ، لأن المشتري قد قبل رد المبيع للبائع عند طلبه ذلك متى رد الثمن كما قلنا .

من أجل ذلك كله ، اختلف الفقهاء في حكمه اختلافاً كبيراً كما ذكرنا . فهذا صاحب كتاب « جامع الفصولين » يذكر أن « البيع الذي تعارفه أهل زماننا وسموه بيع الوفاء هو رهن في الحقيقة ، لا يملكه ولا ينتفع به إلا بإذن مالكة ، وهو — أى المشتري — ضامن لما أكل من ثمره وأتلف من شجره ، ويسقط الدين بهلاكه ولو بغيره ولا يضمن الزيادة ، وللبائع استرداده إذا قضى دينه ، لا فرق عندنا بينه وبين الرهن في الأحكام » (١) .

وقال صاحب الدر المختار إن هذا بيع يفيد الانتفاع بالشئ المبيع ، وعليه الفتوى . ثم إن ذكر البائع والمشتري الفسخ ، أى الوفاء بالدين ورد المبيع ، في العقد أو قبله أو زعماء غير لازم كان مبيعاً فاسداً (٢) ، ولو بعده على وجه الميعاد جاز ولزم الوفاء به لحاجة الناس وهو الصحيح .

ولنا أن نقول ، بعد هذا وذاك ، إن وصف البيع في هذا العقد أظهر بكثير من وصف الرهن ، لا سيما والمرتهن لا يدفع عادة للمالك الشئ المرهون إلا نحو نصف قيمته أو أكثر قليلاً ، على حين أنه في بيع الوفاء يدفع المشتري ثمن المثل عادة ، وهذا

(١) انظر في هذا وما بعده حاشية ابن عابدين على الدر المختار ج ٤ : ٢٥٧ — ٢٦٠ .

(٢) لأنه حينئذ يكون بيعاً وشرطاً ، وقد نهى الرسول عن بيع وشرط .

على الرغم مما نقله صاحب الدر المختار عن بعض الفقهاء من الأحكام التي تجعل هذا العقد رهناً ، ومن هذه الأحكام^(١) :

(أ) لو باع البائع ما باعه بشرط الوفاء لآخر بيعاً باتاً ، توقف هذا العقد الثاني على إجازة المشتري الأول .

(ب) لو باع المشتري ما اشتراه بشرط الوفاء ، فللبائع الأول أو ورثته حق الاسترداد بدفع الثمن الذي كان قد أخذه .

(ج) يقوم ورثة كل من البائع والمشتري في هذا العقد مقام مورثهم ، نظراً لجانب الرهن .

والنتيجة ، أننا نميل إلى اعتبار هذا العقد عقد بيع ، وأنه جائز استحساناً اعتباراً للعرف ولحاجة الناس ، وفي هذا يذكر ابن نجيم المصري الحنفى أن الفقهاء قالوا بأن بيع الوفاء صحيح « لحاجة الناس فراراً من الربا . فأهل بلخ اعتادوا الدين والإجارة ، وهي لا تصح في الكرم ؛ وأهل بخارى اعتادوا الإجارة الطويلة ولا يمكن في الأشجار ، فاضطروا إلى بيعها وفاء ، وما ضاق على الناس أمر إلا واتسع حكمه^(٢) » . وما أحرانا أن نقر العرف الذي أقره أسلافنا الفقهاء ، توسعة على الناس وإبعاداً لهم عن الاقتراض بالربا . وبخاصة ، وليس في هذا البيع إلا الوعد من المشتري برد ما اشتراه إلى مالكة حين يدفع له الثمن الذي كان قد أخذه منه . على أنه لا بد من اشتراط أجل يباح فيه للبائع استرداد ما باعه على هذا النحو ، وإلا كان البيع باتاً نهائياً ، ضماناً لاستقرار المعاملات .

(٣) بيع العينة :

هذا البيع ليس في حقيقته إلا حيلة للتعامل بالربا ، فهو إذاً وسيلة إلى غرض أو عقد غير مشروع . ومن صورته أن يحتاج إنسان إلى مائة من الجنيهات مثلاً ، فيذهب إلى آخر يريد اقتراضها منه بفائدة عشرة في المائة مثلاً ، لكن هذا بحسب أن

(١) ح ٤ : ٢٥٨ . وانظر ابن عابدين في الصفحة نفسها ، إذ يذكر عن الفتاوى الخيرية أن البائع لو استأجر ما باعه وفاء لانصح الإجارة ولا تجب الأجرة عليه ، لأنه عقد رهن .

(٢) الأشباه ، المجلد الأول ص ١٣٥ .

(٣) العينة بكسر العين المهملة : السلف ، يقال : باعه بعينة ، أى نسيئة ، وفي المصباح وقبل هذا البيع عينة ، لأن مشتري السلعة إلى أجل يأخذ بها عيناً أى نقداً حاضراً .

يتظاهر بالتورع والبعد عن الربا ، فيقول له أبيعك هذا الشيء بمائة وعشرة من الجنيهاً تدفعها بعد عام ، فإذا ما قبض المبيع باعه هو إلى صاحب المال بمائة جنية حالة ، ثم بعد عام يؤدي إليه الثمن الأول وهو المائة وعشرة ، فيكون الفرق فائدة أو ربا لصاحب المال الذي بدا وكأنه بائع ومشتري .

وقد يتوسط بين الطرفين شخص ثالث ، يقوم بشراء العين المبيعة إلى أجل من مريد الاقتراض بشمن حال أقل من الثمن المؤجل ، ثم يبيعها للمقرض بما اشتراها به ، فيكون الفرق فائدة للمقرض نفسه .

وهكذا ، نرى أن هذا العقد في الصورة الأولى أو الأخرى ، ليس عقد بيع وشراء حقيقيين ، وإنما هو حيلة يتوصل بها إلى إباحة القرض والاقتراض بالفائدة الربوية ، وقديماً وحديثاً ودائماً نرى بعض من لا خلاق لهم يحتالون على الشريعة بحيل مختلفة تحلّ لهم ما يريدون مما حرّمه الله تعالى .

على أن حرمة هذا البيع وبطلانه ليس محل اتفاق بين الفقهاء . فهذا الإمام الشافعي — على جلالته ودينه — يميزه لتحقيق ركنه وهو الإيجاب والقبول ، ولا عبرة بالنية في رأيه لأنه لا يمكن أن تتعرّفها على وجه يقيني ، وكذلك ذهب الإمام أبو يوسف من الأحناف إلى إجازته بلا كراهة ، وأجازته الإمام محمد بن الحسن مع الكراهة ، نظراً للنية الآتية ، حتى قال فيه : هذا البيع في قلبي كأمثال الجبال ، زميم ، اخترعه أكلة الربا . ولا ندرى لم أجازته وهو يراه كما وصف أو في رأى الإمام أبي حنيفة نفسه أنه عقد فاسد إن لم يتوسط فيه ثالث بين صاحب المال والمقرض (١) .

أما ابن حنبل وكذلك الإمام مالك ، فيريان هذا البيع باطلاً ، وأنه حقاً احتيال على شرع الله ونص القرآن وسنة الرسول ، وهما يستدلان بهذا الحديث الذي رواه العالية بنت أبي نافع بن شراحبيل ، إذ تقول (٢) :

« دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامرأته على عائشة رضي الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم إني بيعت غلاماً من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم إلى العطاء ، ثم اشتريته

(١) راجع المغني لابن قدامة ، ج ٤ : ١٧٤ ؛ الدر المختار وحاشية ابن عابدين ، ج ٤ : ٢٥٥ —

٢٩١ ؛ فتح القدير على الهداية ، ج ٥ : ٢٠٧ — ٢٠٩ .

(٢) راجع المغني ، ج ٤ : ١٧٤ — ١٧٥ ؛ الشرح الكبير للدردير مع الحاشية ج ٣ : ٩٩

نيل الأوطار ، ج ٥ : ٢٠٦ ؛ القرطبي ، ج ٣ : ٣٦٠

بستمائة درهم (حالة طبعاً) ، فقالت بئس ما شريت وبئس ما اشتريت ! أيكفى زيداً بن أرقم أنه قبل أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب .
ونحن نرى أنه لا معنى مطلقاً لتجوز مثل هذا البيع حق وإن اعتبرناه مكروهاً ،
لأنه كما قلنا ليس إلا احتيالا على شرع الله ورسوله ، وبخاصة وأم المؤمنين عائشة رضى
الله عنها لا تقول هذا القول الغليظ ، التى ساقته مساق الوعيد لزيد بن أرقم ، إلا عن
علم ومعرفة من الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم ، لنا أن نضيف لهذا الحديث حديثاً آخر رواه أبو داود وغيره من أصحاب
بجاميع الحديث ، وهو كما جاء ببعض الروايات عن ابن عمر رضى الله عنهما : « إذا ضنَّ
الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى
سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعهم حتى يرجعوا دينهم » . (١)

نحن نرى هذا رأى ، مع ما نعرفه من أن كثيراً من الفقهاء الأحناف وغيرهم قد
أجازوا غير قليل من الحيل فى المعاملات وغيرها — وقد أطال ابن تيمية وابن القيم فى
كثير مما كتبوا فى الرد على الذهاب هذا المذهب — ولكن هذا البيع تحايل واضح
على تحليل التعامل بالربا الذى أوعدنا الله بالحرب عليه ، فليس لمسلم مؤمن بالله
وكتابه والرسول وسنته أن يغمض العين أو يتسامح فى هذا الباب .

وقديماً ، فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان بعض المعاملات الربوية تخفى
على بعض الصحابة ، فكانوا يجدون من الرسول ما يهديهم وجه الحق ، وفى هذا
يحدث أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى أن الرسول بعث أخا بنى عدى الأنصارى
فاستعمله على خيبر ، فقدم بتمر جنيب . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكل
تمر خيبر هكذا ؟ قال : لا يا رسول الله ، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع . فقال
الرسول : لا تفعلوا . ولكن مثلاً بمثل ، أو يبعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا ،
وكذلك الميزان (٢) .

ولكن ، ما عذرنا نحن بعد هذا الإيضاح النبوى ، وهو كاف شافٍ وبعد ما رأينا
من السكوارث التى نزلت بالثروات الخاصة والعامة من إجازة التعامل بالربا ! والله
يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(١) شرح البوصى على مسلم ، ج ٤ : ٥٧ . والتمر الجنيب نوع من أعلا أنواع التمر ، والجمع
نوع ردى منه .

مذكرات الأمير عبد الكريم الخطاطبي

[يمش في مصر الآن رجل لا يعرفه المصريون ، وقل من يعرفه من المسلمين ... إنه الأمير « عبد الكريم الريفي » بطل من أبطال الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري ... صمد أمام أسبانيا وفرنسا سبع سنين ، في حرب دامية أصلاهم فيها نارا ... ولم تكن حربا بدائية على ظهور الخيل والجمال وبالسيوف والحراب ، ولكنها حرب ضد مائتي ألف من الأسباب وحدهم ، قال عنها المارشال بيتان « الحقيقة الراهنة أننا هوجنا عن غير استعداد من أكمأ عدو لاقيناه في حروبنا الاستعمارية ، وأن الرأس التي تدبر خطته رأس قوية ذات حزم ومهارة !! » .

وهذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الأمير ، وقد أثر بهذا الفضل مجلة « المسلمون » لأنها كما قال سموه مجلة الإسلام في هذا العصر ، ولعلها بذلك تصحح كل مانشر محرفا عن جهاد الريف .
جزاه الله خيرا وتقبل منه]

التحرير

في ركن وادع من بيت الأمير محمد شقيق الأمير الكبير جلست إلى البطل المجاهد « عبد الكريم » . . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها إليه ... ولكنه كان فيها جديداً على ، شأنه في كل مرة ألقاه ، فإن روعة الحق الذي يملأ جوه ، وجمال الماضي الأبيض الناصع من وراء لسانه وعينييه ، يجعلانك تكبره وتحميه ، وتزهده في كل شيء سوى الحق والنور ومجد الإسلام .

ما أكثر ما ألفت كتاب الغرب عن عبد الكريم ، وما أقل ما يعرف المسلمون عن عبد الكريم . . .

ذهبت إليه أرجوه ليكتب عن جهاد سبع سنوات كاملة حمل لواءه وتقدم صفوفه ، فإذا هو يدفعني عن نفسه كأنه يخشى في رجائي لدغة ثعبان !

— جهاد ؟ .. جهادي أنا ؟ أنا جاهدت ؟ .. ودمعت عيناه دموع صدق وحياء من الله ، وأردف يقول في صوت مشرق : إنه الله وحده الذي فعل كل شيء ، ومن قال لك غير ذلك فقد كذب ، والله كذب . كذب . كذب . . . وفاضت دموعه . . .

وما زال به الأخ الحبيب أحمد بن سودة يزوره مرة ومرة ليقنعه بفائدة الكتابة للمسلمين ، وبأن حديثه عن جهاد الريف حديث لنعمة الله عليه وعلى إخوانه . .

حتى شرح الله صدره ووافق أن يحدثنا بما يستطيع من ذكريات أيام الله في مراکش ،
أما الذي لا يستطيع ذكره اليوم فإنه يعتذر عنه إلى يوم قريب . . . لأنه لا يزال من
حق القضية التي لم تحل بعد . . .

سن تجاوز السبعين ، ووجهه حلو جلله شعر أشيب على روح نضره وعزم من
حديد . . . وأعصاب تحترق لكل نازلة بالمسلمين في الشرق والغرب . . . ومقياس ثابت
للأمور في كلمتين : الإيمان والسلاح ، من أية ناحية دافقت إليه وجدته عندها
لا يقيس بغيرها !

وإمارته ليست إمارة نسب وزئها وراثية ، وإن كانت قبيلته (ورياغل) لها
في الريف الرياسة من قديم ، ولكنه أمير بمعنى « أمير المقاتلين الذي له البيعة
واللواء » ..

تعلم في جامعة القرويين ، وعين قاضياً في ماليليا سنة ١٩١٠ ، ولكنه لم يستطع
أن يحتمل تصرفات الأسباب المحتلين فعارضها وأصر على معارضته فزج في السجن سنة
١٩١٥ ولبت في السجن أحد عشر شهرا .. خرج بعدها إلى بلده يدبر أمرا ، وكان
قدوته في ذلك والده رحمه الله الذي أنذر الأسباب بالحرب إذا لم يكفوا عن العدوان ،
فلم يكفوا ، فشرع يحاربهم ، وأخذ لذلك بعض عدته من التنظيم . . . ولكن لأسباب
دسوا له السم غدرا في طعام فمات فجأة بعد مرض قصير . . . فحمل عبد الكريم اللواء
بعد أبيه . . .

ولم تكن محاربة الأسباب أمراً هيناً ، فإن عمرهم في الريف حينذاك : أي في سنة
١٩٢٠ كان قد أوفى على أربعة قرون ، بدأوها باحتلال جزر على الشاطئ الشمالي من
مراكش مثل شفارينيس ولنسكور (الأوسيمس) وبين هذه وبين بيت عبد الكريم
٢٤٠٠ متر (وقد هدم الأسباب هذه الدار ولم يبقوا لها أثرا) ، ومثل شبه جزيرة
ماليليا ، ثم احتل الأسباب تطوان سنة ١٨٦٠ وانسحبوا عنها بشروط قاسية ، وأخيراً
دخلت جيوشهم سنة ١٩٠٩ . . .

اجتمع عبد الكريم مع ستة من رفاقه الأمناء وبدأوا يدبرون أمرهم . . . وفي ليلة
غراء خرجوا إلى « قامه » وهي جبل يشرف على أنوال حيث تجتمع قوات العدو ،
والثقت أيديهم في قسم مقدس على الموت في سبيل الله . . . وبدأوا يستدعون رؤوس
القبائل واحداً بعد واحد ، وكل قادم يقسم معهم قسم الموت . . . ويعلم النعيم والسلاح
ويجهد إذا ترك صلاة . . . وما إن اكتمل العدد اللازم حتى قرر أولو الأمر فهم أن
تبدأ المعركة . . .

« يتبع »

أم أيمن

هاجرت رضى الله عنها من مكة إلى المدينة لتدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . هاجرت ماشية ليس معها زاد ، صائفة في يوم شديد الحر ، وحر الرضاء قاس أليم . . . كأنها لم يطفى غلة قلبها الكبير أن تفر إلى الله من الأهل والعشيرة والدار ، فلبجأت إلى الصوم تفر به من كثافة جسدها الضامر ، وتخرج إلى رحاب قدس الله طائفة على جناحين من جوع وعطش ، لا يصحبها إلا حفيف جناحيها . . . ونور سرها المشتعل ! رويدك يا أم أيمن ! . . . رويدك مجاهدتك لنفسك وشدتك عليها ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، واخر يهلك الرجال ! !

ولكن . . . أين أم أيمن ، لتسمع ؟ أين هي من كل ماحولها ؟ إنها في نشوة من سرها ، وفي عمرة مما ترى هي وتسمع ! !
رباه . . . إنها خرجت فرارا إليك ، لم يقضها عنك شيء سواك ، ولم يشغلها من الناس أحد غير « محمد » . . . شغلها لأنك أرسلته ؟ وخرجت إليه لتلقى أمرك عنده وتسمى في قافلته ! إلى رحاب قدسك .

رباه . . . أنت وحدك لها . . . لأنها لك وحدك ! !
وعطشت « أم أيمن » بالروحاء عطشا شديداً ، كادت أن تموت من شدته . . . تقول رضى الله عنها : « فلما غابت الشمس إذا أنا بخفيف شيء فوق رأسي ، فرفعت رأسي فإذا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض ، فدنا مني حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت . . . فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش ، وما عطشت بعدها ! »
هكذا أقبلت على ربها . . . فأقبل عليها « وإن الله لمع المحسنين »

* * *

روى أنس ، لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر لعمر ، مر بنا إلى أم أيمن زورها كما كان رسول الله يفعل . . . فلما رأتهما بكيت ، فقالا لها ما يبكيك قالت : إني لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار إلى خير مما كان فيه ، ولكنني أبكي لخبر السماء انقطع عنا . . . « فبهجتهم على البكاء فجعلتا يبكيان معها . . . »
سلام على أم أيمن في الصالحات .

النشر يجمع الجناح إلى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عوده

أركان السرقة

الركن الأول : الأخذ خفية

(٦)

التعاون على الإخراج : الأصل أنه لا يعتبر أخذاً خفية إلا الشخص الذى يخرج الشيء المسروق من الحرز سواء حمله إلى خارج الحرز أو رماه إلى الخارج . ولكن الكثيرين من الفقهاء يعتبرون كل من يعاون على إخراج المسروق أخذاً خفية وإن كان بعضهم لم يحمل ولم يخرج شيئاً لأن الحمل والإخراج يعتبر حاصلًا منهم معقلاً لا مادة . وفى اصطلاح هؤلاء الفقهاء أن المعين على إخراج المسروق هو من يعين السارق على إخراج الشيء المسروق من الحرز سواء كانت الإعاقة مادية أو معنوية . وهم يلحقون المعين على السرقة بمن يباشر السرقة ويعطونه حكمه لأن السارق لا يسرق وحده غالباً وإنما يتعاون مع غيره ، فلو جعل المباشر وحده أخذاً خفية لشجع ذلك على السرقة ولأفلت الكثيرون من عقوبة القطع ، أو كما يقولون لا تفتح باب السرقة وانسد باب القطع^(١) .

والفقهاء الذين يلحقون المعين بالمباشر متفقون على أن المعين الذى يعتبر أخذاً خفية هو الذى يعين فى إخراج الشيء المسروق من الحرز لأنه بذلك يعتبر مخرجاً له . فإن كان العون فى غير ذلك كاشتراك فى النقب أو كسر الباب أو فتحه بمفتاح مصطنع أو مساعدة الداخل على تسلق الحائط للدخول فى الحرز أو مساعدة فى حمل المسروقات بعد إخراجها من الحرز فإن فاعل هذا وأشباهه لا يعتبر أخذاً خفية فلو اتفق اثنان على سرقة منزل وتعاونوا على نقب الحائط ثم دخل أحدهما وبقى الآخر فى الخارج يرقب الطريق وأخرج الداخل المسروقات من الحرز مرة بعد أخرى دون أن يستعين بزميله ، وبعد إخراجها تعاونوا على حملها فالداخل وحده هو الآخذ

خفية وعليه القطع . أما الخارج فلم تتوفر فيه شروط الأخذ خفية وعليه التعزير لأنه لا يعتبر معينا على الإخراج مادام لم يتعاون مع المباشر في إخراج الشيء المسروق من الحرز .

ومع أن الكثيرين من الفقهاء يلحقون المعين بالمباشر إلا أنهم اختلفوا في الأفعال التي تعتبر إغاثة بحيث لا يتفق مذهب مع آخر في تحديد هذه الأفعال وسنستعرض فيما يلي آراء فقهاء المذاهب المختلفة :

فمالك يرى أن المعين على الإخراج قد تحدث منه الإغاثة وهو في خارج الحرز وقد تحدث منه الإغاثة وهو في داخل الحرز ، فأما الإغاثة من خارج الحرز فمثلها أن يضع الداخل المتاع المسروق في وسط النقب ويمد الخارج يده لأخذه فتجتمع أيديهما في النقب بموضع لم يخرج به الداخل من الحرز ولم يخرج به الخارج من الحرز وإنما هو بين بين فإذا تناول الخارج المتاع على هذا الوجه فهو معين على إخراجها لأن فعل كل منهما لم يستقل بإخراج المسروق ولأن فعل كل منهما جاء مصاحبا لفعل الآخر . ومثل الإغاثة من الخارج أيضا أن يربط الداخل المتاع بحبل فيجره من الخارج فإذا فعل الخارج ذلك فهو معين على الإخراج .

فالقاعدة إذن عند مالك أن الخارج يعتبر معينا على الإخراج إذا كان فعل الداخل لا يجعله مستقلا بالإخراج وإذا تصاحب فعلاهما في حال الإخراج (١) .

أما الإغاثة من داخل الحرز فتكون بالتعاون في حمل المسروق إلى خارج الحرز أو بالتعاون في تحميله على أحد السارقين أو بعضهم أو في تحميله على دابة وبشرط أن يكون هذا التعاون ضروريا كأن يكون المسروق ثقيلا فلا يستطيع إخراجها إلا كثيرون أو لا يستطيع حمله شخص واحد إلا أن يضعه عليه واحد أو أكثر فإن كان المسروق خفيفا فحمله واحد يخرج به وهم معه أو أعانوه على حمله وهو يستطيع حمله دون إغاثة كالثوب والصرة فلا إغاثة لأن التعاون على الإخراج ليس ضروريا وفي هذه الحالة يعتبر من حمل المسروق فأخرجه آخذاً له خفية وهو وحده الذي يقطع أما من عده فعلية التعزير .

وإذا اقتضى إخراج المسروق التعاون في حمله لإخراجه فالحاملون جميعا مباشرون للسرقة مادام أنهم قد حملوه حتى أخرجوه من الحرز فإذا حملوه فوضعوه على شخص منهم أو على دابة فالمباشر هو المخرج والباقون معينون وفي هاتين الحالتين يكفي لا اعتبارهم جميعا آخذين خفية مستحقين للقطع أن تبلغ قيمة المسروق نصابا واحداً .

وإذا اشترك كثيرون فى إخراج المسروقات من الحرز ولم تكن هناك ضرورة للتعاون وإنما أخرج كل منهم شيئاً يحمله وهم شركاء فى كل ما خرجوا به ، فالخارجون جميعاً مباشرون ولا يقطع منهم إلا من بلغت قيمة ما أخرجه نصاباً ويعذر من أخرج دون النصاب . ولا يعتبر معينا عند مالك من يدخل الحرز أو يبقى فى خارجه دون أن يأتى عملاً مادياً يشترك به فى إخراج المسروقات على الوجه الذى سبق بيانه فمن وقف داخل الحرز ليحمى حامل المسروقات أو لمنع السكان من الحركة أو الاستغاثة أو ليرشد اللصوص على مكان الحلى والنقود فإنه لا يعتبر مباشراً ولا معيناً ، ومن ثم فلا قطع عليه وإنما عليه التعزير (١) .

ويشترط أبو حنيفة لاعتبار الشخص معيناً أن يدخل الحرز فإن لم يدخل الحرز فلا يعتبر معيناً ولو ساعد فعله على إخراج المسروقات من الحرز وهو فى رأيه هذا يطبق نظرية هتك الحرز هتكاً متكاملاً .

والمعين فى مذهب أبى حنيفة هو من دخل الحرز مطلقاً سواء أبى عملاً مادياً عاون به على إخراج المسروقات كأن وضعها على ظهر آخر فأخرجها الآخر أو أبى عملاً معنوياً يساعد على إخراج المسروقات من الحرز كوقوفه للحراسة أو لمنع الغوث أو للإشراف على نقل المسروقات من الحرز ، ويعتبر وجوده داخل الحرز إعانة معنوية على إخراج المسروقات من الحرز ولو كانت الحالة لا تقتضى وجود المعين (٢) .

على أن الإعانة لا يجب فيها القطع عند أبى حنيفة إلا إذا خص كل مباشر وكل معين نصاباً فإذا كانت قيمة ما أخرج لا تكفى ليصيب كل منهم نصاباً فلا قطع وإنما التعزير (٣) .

وإذا اشترك جماعة فى سرقة نخرج كل منهم ببعض المسروقات وبعضهم يحمل ما قيمته نصاباً فأكثر وبعضهم يحمل أقل من نصاب فعملهم القطع جميعاً إذا كانت قيمة المسروقات فى مجموعها تكفى لأن يصيب كل منهم نصاباً وفى هذا يختلف مذهب مالك عن مذهب أبى حنيفة .

أما مذهب أحمد فيتفق مع مذهب مالك فى أن الإعانة قد تحدث من شخص خارج الحرز وقد تحدث ممن فى داخله ، كذلك يتفق المذهبان فى تحديد الإعانة من الخارج ولكنهما يختلفان فى الإعانة ممن فى الداخل .

ويتفق مذهب أحمد مع مذهب أبى حنيفة فى الإعانة من الداخل فيعتبر معينا

(١) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٩٦ — المدونة ج ١٦ ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٤ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٦

(٣) فتح القدير ج ٤ ص ١٢٥ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٧٨

عند أحمد كل من يدخل الحرز سواء أتى عملاً مادياً كإعانة غيره على حمل المسروقات أم أتى عملاً معنوياً كمنع الغوث أو لم يأت عملاً ما .

وفي مذهب أحمد يقطع المعين والمباشر إذا بلغت قبعة ما أخرج نصاباً واحداً ، وإذا اشترك جماعة في السرقة فليس من الضروري أن يبلغ ما حمّله كل منهم نصاباً بل يكفي أن يبلغ كل ما أخرجوه من الحرز نصاباً واحداً لا غير ليقطعوا به هم ومن أعانواهم على الإخراج سواء من الداخل أو من الخارج ، وفي هذا يخالف مذهب أحمد مذهبي مالك وأبي حنيفة^(١)

أما في مذهب الشافعي فلا يعترفون بالإعانة من خارج الحرز ولا بالإعانة من داخله والمعين في كل الأحوال عليه التعزير ولا قطع عليه .

ويقطع الشافعي المشتركين في السرقة بشرطين : أولهما : أن يشترك السارق في إخراج المسروق من الحرز كأن يكون شيئاً ثقيلاً فيتعاون السارق على حمّله لخارج الحرز أو أن يكون المسروق أشياء ، متعددة فيحمل كل منهم شيئاً فمن أخرج منهم شيئاً خارج الحرز فهو سارق . ثانيهما : أن يخص كل من السارقين نصاباً إذا وزعت عليهم قبعة ما أخرجوا بغض النظر عما أخرج كل منهم ، فقد يخرج أحدهم نصاباً أو أكثر وقد يخرج أقل من نصاب^(٢) .

وإذا لم يشترك السارقون وكان كل منهم مستقلاً في فعله وقصده عن الآخر فالعبرة بما يخرج كل منهم ، فمن أخرج نصاباً قطع إذا توفرت الشروط الأخرى ومن أخرج أقل من نصاب لم يقطع^(٣)

ويتفق مذهب الشيعة الزيدية مع مذهب مالك فهم يرون قطع المعين من الخارج أو من الداخل بنفس الشروط وعلى الكيفية التي يراها المالكيون^(٤) .

هذا هو حكم الإعانة على الإخراج في مختلف المذاهب ، وظاهر منه أن المعين على الإخراج يعتبر فاعلاً أصلياً للسرقة ويعاقب بالقطع كمباشر السرقة ، أما الشريك بالاتفاق أو التحريض أو المساعدة كما نعرفه في القوانين الوضعية فلا قطع عليه ، وعقوبته التعزير مادام أنه لا يعين على إخراج المسروق من الحرز ، والشريك على أحد هذه الوجوه يسمى في الشريعة الإسلامية الشريك بالتسبب ، أما الفاعل الأصلي المشترك مع غيره فيسمى الشريك المباشر .

(١) المغني ج ١٠ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ - كشف القناع ج ٤ ص ٧٩

(٢) المهذب ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٩٧ نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٢١

(٣) أسنى المطالب ج ٤ ص ١٣٨ ونهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٢١

(٤) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٨

نهاية الخلافة العثمانية

ومستقبل الوحدة الإسلامية

للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

فى مارس عام ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال » — الغازى كما كان يلقب فى بلاد الإسلام فى أثناء حربه مع اليونان و « أتاتورك » كما لقب نفسه واختار أن يدعو به بنو وطنه فيما بعد — أعلن إلغاء الخلافة ؛ ونفى آخر خليفة يجلس على عرش دولة « آل عثمان » وهو السلطان عبد المجيد الثانى ، فذهب إلى فرنسا حيث بقى بها إلى أن مات مغترباً فى خلال الحرب العالمية الأخيرة .

لم يكن هذا الحدث فى ذاته — ولا سيما إذا نظرنا إليه من الوجهة التاريخية — أمراً هيناً . فقد كان معنى ذلك أن رئيس دولة تركيا قد قرر إنهاء نظام ظل قائماً ومستعمر فى بلاد الإسلام — فى هيئته الصورية على الأقل — نحو ثلاثة عشر قرناً . وقد كان حادث سقوط خلافة يعد فيما مضى من عصور تاريخ الإسلام أمراً جليلاً ، ويترتب عليه من النتائج السياسية والاجتماعية ما يبق أثره دهوراً بعد ذلك ؛ ولم يكن هذا السقوط يتم بسهولة بدون إعلان حرب وإغارة جيوش وسفك دماء ؛ كما كان يسبقه تدبير سابق يستغرق سنوات . ولكن سقوط هذه الخلافة فى الزمن الأخير « العثمانية » لم يكن مشابهاً لما حدث فى الأعصار السالف ، فلم يقتض الأمر أكثر من إصدار قرار ؛ وأنزل الخليفة ونفى دون أن تطلق رطلقة من مسدس أو تراق قطرة من دم . كما أن العالم الإسلامى لم يشعر بشيء من الرجة ؛ أو يعترى الشعوب فيه شيء من الذهول ؛ مع أن القرار الذى صدر لم يكن يرمى إلى استبدال خلافة بأخرى ، ولكن إلى إلغاء الخلافة بالمرّة ووضع حد لهذا النظام كله . على أن من الإنصاف أن نقول إن هذا العمل أثار نوعاً من الاحتجاج فى بعض الدوائر ، وسخط عليه البعض ، وبدأت محاولات فى السنوات التالية لحدوثه لإقامة خلافة جديدة مكان تلك التى ألغيت ، ولكنهما لم تنجح لأنها لم تجد تأييداً عاماً ؛ كما أن الخلافة التى أدلت لم تعدم شاعراً

يرثها ، فوجدته في شخص أمير الشعر « أحمد شوقي » الذي عاش أكثر حياته في جو
عثماني ؛ وكان دائماً الولاء للخليفة ودولة آل عثمان . ف نظم قصيدة طويلة قال فيها :
عادت أغاني العرس رجع نواح ونُصبت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بشوبه ودفنت عند تبليج الإصباح
شُيِّعت من هلع بعبرة ضاحك في كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينه تبكي عليك بمدمع سحاح
ولم يكن الأمر تماماً كما وصف « شوقي » ، فهذا من خيال الشعراء !
ثم قال :

ياللرجال الحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
وهذا يخالف الحقائق التاريخية كما هو جلي ، وكما سيتبين فيما بعد ، فكلم كان
لها من جريرة وجناح ، ولكن أعذب الشعر كما يقولون — أكذبه .
وقال أيضاً ، وفيه بعض الصدق :

حسب أتى طول الليالي دونه قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبيباها كانت أبر علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور وزجرا بجمعته عليه سراير الزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غداة جمعة ورواح

والمؤرخ عنده تفسير سقوط هذه الخلافة العثمانية ، على هذا النحو الهين . فما منشأ
هذه الخلافة أولاً ؟ لقد سقطت الخلافة العباسية في عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على أثر
اجتياح المغول بقيادة « هولاكو » التتري لبغداد ، فزححت الخلافة في صورة شكلية
إلى مصر في عهد « الظاهر بيبرس » من المماليك ، حيث بقيت يتوارثها أفراد من
سلالة العباسيين إلى أن سقطت دولة المماليك على يد السلطان « سليم الأول » فتنازل له
الخليفة العباسي الموجود عن الخلافة ، وبذلك انتقلت إلى « الأستانة » ؛ وذلك في عام
٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فتكون الخلافة قد عاشت في تركيا أربعة قرون كاملة وبضعة
أعوام . على أن الذي حدث بالفعل أن رؤساء الدولة العثمانية كانوا يلقبون بالسلطين
لا « الخلفاء » وكأنما كانوا يؤثرون اللقب الأول ، وكان اللقب الآخر حين يرد في
المكاتبات يذكر على سبيل التحية أو المدح . كما أن بعض المؤرخين المحدثين أخذ يلقى
ظلالاً من الشك على واقعة التنازل هذه ويعمد إلى إثبات عدم صحتها . ومهما يكن

فإنه في العهد الأخير للدولة : أى حينما بدا ضعفها ، وتفككت أوصالها ، وأحاط بها
الأعداء من كل جانب ، وبالتحديد في عهد السلطان « عبد الحميد » (١٨٧٦ -
١٩٠٨) بدأت الدعاية تنشط للخلافة .

وأخذ الكتاب والرجال الرسميون يصورون هذا العاهل على أنه « الخليفة »
وتغنى الشعراء بمدحه — ومن بينهم شاعرا مصر شوقي وحافظ — وصاروا يحيون
معاني الخلافة ويحددون ذكرياتها في الأذهان . وكان هذا كله محاولة لتقوية الروح
الوطنية في الدولة التي كانت في طريقها إلى الانهيار . ولإيجاد جبهة متحدة باسم الجامعة
الإسلامية تستطيع أن تقف في وجه الأمم الأوروبية التي كانت تغير على حدودها
وتتزعزع من أراضيها قطعة فأخرى . أى أن مظهر الخلافة قوى في الوقت الذي ضعفت
فيه حقيقة الدولة . وكانت على وشك التحلل فالتزق ، فكانت محاولة لستر الضعف
وإخفاء الحقيقة ليس إلا . واسمع مثلاً ما قال « حافظ » في مدح السلطان عبد الحميد :

أحصى معانيك القريض المذهب على أن صدر الشعر المدح أرحب
لقد مكن الرحمن في الأرض دولة لعثمان لا تغفو ولا تشعب
بناها فظنتها الدراري منازل لبدر الدجى تبنى وللسمد تنصب
وبعد عامين فقط من قول هذه القصيدة عفت دولة « عثمان » وتشعبت ، ونصبت
للشقاء لا للسعد !

وما كان يقول « شوقي » وقد نظم أكثر من رفيقه ، وله فيه مطولات بل معلمات :

سما بك يا عبد الحميد أبوة ثلاثون حضار الجلالة غيب
نهضت بعرش ينهض الدهر دونه خشوعاً وتخشاه الليالي وترهب
مكين على متن الوجود ، مؤيد بشمس استواء ، ماله الدهر مغرب !
وقد غربت هذه الشمس بعد بضعة أعوام ، ولم يبق الدهر كما توقع شوقي .
وقال فيه أيضاً :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما نجائك للدين الخفيف نجاة
هنيئاً لطفه والكتاب وأمة بقاؤك إبقاء لها وحياة
أخذت على الأقدار عهداً وموثقاً فلست الذي ترقى إليه أذاة

ولابد أن الشاعر قد دهش دهشة أخاذة حين شاهد أن الأذاة . وما هو أخطر
منها ، قد رقت إلى ممدوحه . وأنه لم يكن هناك بينه وبين الأقدار أى عهد ولا موثق !
على أن هذا السلطان لم يكن في نظر التاريخ إلا طاغية مستبد ، وكان عهده من

أسوأ العهود التي مرت بها حياة الأمة الإسلامية ، وقد حكم أكثر من ثلاثين عاما فلم يكن لهذا الحكم من أثر إلا ازدياد تأخر الدولة ، واستفحال أدوائها ، وذهاب قواها إلى أن أشرفت على الفناء . ذلك لأنه كان يحارب كل نزعة إلى الحرية ، وكل دعوة إلى الإصلاح ، وكل حركة تهدف إلى ارقى وتبصير الشعوب بحقائق الحال . حارب « مدحت باشا » الرجل الإسلامى المصلح الذى أراد أن يقيم الحكم على أسس من الشورى ، وقضى على الدستور الذى وضعه ، وما زال به حق نفاذ ومات فى « الطائف » مسموما . واستدرج السيد « جمال الدين الأفغانى » حتى جاء به إلى الأستانة حيث أبقاه عنده شبه أسير فى قفص من ذهب ، وكمل بذلك القضاء على دعوته ، وشل حركته إلى أن مات بعد خمس سنوات فى هذا الأسر فى ظروف مريية . وفى عهده أخذ الإنجليز « قبرص » أخذوها هدية منه فى عام ١٨٧٨ . ثم احتلوا مصر عام ١٨٨٢ — وكانت هذه أكبر كارثة وجّهت إلى العالم الإسلامى منذ احتلال الغربيين لبيت المقدس فى عهد الحروب الصليبية — فلم يمنع شيئا . ورضى « أمير المؤمنين » بالواقع ، وبقي الاحتلال . ثم استولوا على السودان أيضاً فظل ساكنا ولم يتحرك . وأمنت إنجلترا وفرنسا مؤامرتهما باتفاقهما فى عام ١٩٠٤ على اقتسام بلاد الشرق الأوسط ، وبقي هو ساهيا فى غمرته : غمرة المظاهر والاحتفالات والبذخ والفخفة التى يسمونها شرقية والتى يخدع بها العامة والسذج ، ويروج لها المنافقون والأتباع الكاذبون وأنحاب الأهواء والمصالح .

بالرغم من هذه المظاهر الكاذبة كانت الدولة إذن فى غاية الضعف ، وكانت الخلافة خداعا ، اسما على غير مسمى . وإذا ألفت نظرة على أحوال العالم الإسلامى فى ذلك العهد فماذا ترى ؟ ترى أن الهند المسلمة — وكانت تدعى بالولاء الشعورى لهذا الخليفة على بعد الدار — كانت رازحة تحت كابوس الاستعمار الإنجليزى ، وأفغانستان شبه المستقلة وإيران الشيعية مسرحا للدسائس الاستعمارية بين روسيا وإنجلترا ، ومصر قد دهمها الاحتلال البريطانى ثم السودان ، ولبنان صارت ولاية مسيحية منفصلة تحت حماية الدول ، وفرنسا فى الجزائر قد وثبتت على تونس ، وأخذت تمد شباكها إلى مراکش ، والصهيونية أخذت تضع أول حجر فى بنائها فى فلسطين ، وقبرص صارت قاعدة فى يد بريطانيا وولايات البلقان قد تم انفصالها ، وأخذت تتكون دولا قوية مشبعة بروح العداء على حدود الدولة التى كانت تحكمها من قبل . وهكذا كانت الدولة مهددة بالزوال مشرقة على الهلاك والسكن فى نفس الوقت كان هذا السلطان أو الخليفة كما كان يسمى

نفسه يفرض عليها حكماً استبدادياً جائراً؛ ويقذف معارضيهِ في أعماق السجون أو البحار ويسوق الأحرار بسوط من نار .

حين أعلن « مصطفى كمال » إلغاء الخلافة ووجه إليها ضربته القاضية كانت الخلافة في الحقيقة قد انتهت قبل ذلك بوقت طويل : كانت قد دخلت في النزاع الأخير منذ عهد السلطان عبد الحميد ، وكانت مريضة مرض الموت دهرًا طويلاً منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت الدولة العثمانية معروفة بأنها « الرجل المريض » في المجامع الدولية ، وتذكر على أنها كذلك في الوثائق السيامية . فعمل مصطفى كمال لم يزد على أنه كان بمثابة إصدار شهادة الوفاة أو مواراة التراب جثة كانت هامدة وفارقتها الروح منذ أمد طويل . ومن أجل هذا كان سقوطها هيناً ، ولم يحدث في العالم الإسلامي إلا ضجة مفتعلة ، وبعض مظاهر احتجاج من الطامعين الذين كانوا يودون أن يخلعوا على أنفسهم هذا اللقب الأجوف ، وربما أثارت أيضاً شعوراً من الأسى الحقيقي في نفوس من لم يعرفوها على حقيقتها ، ولم يفكروا في المآسى التي حلت بعالم الإسلام من جراء وجودها .

سقطت تلك الخلافة — إن جاز لنا أن نسميها هكذا — بسبب الاستبداد والطغيان والحكم الفردي ، وبسبب عكوف السلاطين والولاة على شهواتهم ؛ واستغلالهم لشعوبهم والانصراف إلى قضاء مصالحهم ، وإهمالهم ونباهتهم للأجبات الملقاة على عاتقهم . وبسبب سوء الإدارة وفساد النظام ، وقيام الحكم على أساس الرشوة والمحاباة ، وعدم تولى الأكفاء الحكم ؛ ولاستئثار « لانكشارية » بالنفوذ السياسي ، وتصرفهم في كل شئون الدولة ، ولجعل الدولة غايتها الحصول على المادة ، وطرح الولايات والمناصب في المزاد . وسقطت بسبب فشو الجهل ، وللجمود ، والانطواء على الذات وعدم الاتصال بالعالم ، والعجز عن فهم روح العصر ومجازاة سنن التقدم ؛ والنظر إلى الشعوب كأنها مساوئ تساق بعصا الغلبة ، فأنعمست في الجهل ، ولم يفهم الفرد حقوقه ولا واجباته ، وعدم وجود سياسة للإنتاج أو خطة للتعمير ، فلم يكن هناك غير الاستهلاك والسلب والانتهاك .

ويمكنك أن تقول . بعبارة أخرى شاملة : إن الدولة سقطت لأن الحكم فيها لم يكن إسلامياً ، وانتهت الخلافة لأنها لم تكن خلافة أصلاً . ولم يكن لها من تلك الحقيقة الرائعة إلا الاسم . فالخلافة الإسلامية إنما تقوم على أساس الشورى بطريق البيعة الصحيحة ، ولا تبقى إلا برضا الأمة ولكن الدولة العثمانية قامت على أساس السيف والقوة ، وبقيت سواء أرضيت الأمة عنها أم لم ترض . وانتقل الحكم فيها بالوراثة

من سلطان إلى آخر . ولكن الإسلام ليس فيه وراثه ، وإنما ينتقل الحكم من الكفء إلى الكفء ، الكفء الذى تنتخبه الأمة وترضاه وتظل مواليه له وهى تراقبه . فالوراثة تؤدى إلى أن يخلف السلطان القوى بغيره ضعيف ، كما حدث إذ خلف السلطان سليمان القانونى ابنه سليم الثانى وكان سكيراً لاهياً ، وقد يخلف السياسى الذكى بغى أحمق . وتؤدى أن تحكم الأمة بالصبيان بل الأطفال الرضع ، ويشرف على أمورها النساء ، وتفرخ فيها الدسائس ، ويتسلل إليها الأعداء عن هذا الطريق . والخلافة الإسلامية تقوم لأداء واجبات معينة لا لخدمة المنافع الذاتية لشخص الوالى أو الحاكم ، وتعمل دائماً وفى كل حالة لصالح الأمة العام ، وتلتزم بالواجبات الأخلاقية ، وتحفظ القيم الروحية ، وتصون تراث الأمة الثقافى والاجتماعى ، وتدأب للتعمير والإنتاج وتحقيق أسباب الرخاء ، وبالجملة تسعى إلى كل ما يزيد من قوة الأمة ويرفع شأنها ، وما ينهض بالفرد والجماعة ؛ وصورة الخلافة الشرعية الصحيحة هى التى كانت على عهد الخلفاء الراشدين ، فأين من هذا كله تلك التى كانت تسمى بالخلافة العثمانية ؟ وأين من العمل لهذه الغايات السلطان عبد الحميد وأمثاله ؟ كم ظلم الإسلام ، وكم ظلمت الخلافة إذا طلق اسمها على تقيضها المجافى لها تماماً !

لهذا لا يحق لنا أن نأسى أو نذرف دمعاً — كما زرف الشعراء التقليديون أو المخدوعون — على تلك الخلافة الاسمية أو الزائفة التى زالت وانقرضت منذ أكثر من ربع قرن . ولكن هناك مع ذلك حقيقة هامة يجب أن ننبه إليها ، وهذه الحقيقة هى التى ألحها الشعراء ، وهى التى تبرر شعور الحزن الذى شعروا به وحاولوا أن يعبروا عنه ، وهى التى تفسر مظاهر من أسى فى بعض الدوائر الإسلامية كما تجلى بين مسلمى الهند لزوال هذا النظام الذى استمر قروناً . تلك الحقيقة هى التى جعلت الخلافة حتى حين تحولات وذهبت حقيقتها ، ولم تعد إلا مجرد صورة أو شكل ، بل حين صار اسمها من أسماء الأضداد ، جعلتها مع كل ذلك عزيزة مهابة ، ذات مكانة فى نفوسهم ، وتحقق لها قلوبهم . وذلك لأن الخلافة ، أو هذا النظام فى أية صورة ، كان يمثل معنى من أسى المعانى فى نفوس المسلمين ؛ وكان رمزاً لغاية أو هدف يحرص المسلمون كل الحرص على الاحتفاظ والتشبث به . هذا المعنى وهذا الهدف هو وحدة المسلمين والتشام صفوفهم ، وتضافر قواهم واجتماع شملهم . فالوحدة فريضة قد أوجبها الله على المسلمين ، وقد نصت عليها الآيات وحثت عليها الأحاديث ، وتؤكد مصلحة الأمة الإسلامية بل تدعو إلى ذلك ضرورة بقائها وحفظ كيائها أن قوتها فى وحدتها وأنها تظل سليمة عزيزة الجانب

ما بقيت متحدة . أما إذا انحلت عراها وتفرقت إلى دول منفصلة - تفكر في مصلحتها الذاتية فقط - أو أحزاب ، فإنها حينئذ تصبح مرمى لسهام الأعداء ويصبح من السهل أن يغير عليها هؤلاء الأعداء فيلتهموها واحدة بعد الأخرى . فالخلافة - حتى في أسوأ صورها - كانت تحقق معنى الوحدة إلى مدى بعيد . وهذا كان أكبر دعامة وأقواها في بنائها حتى حينما تزعت باقي الدعائم . بل إن الدولة العثمانية ما قامت وازدهرت ، وبسطت أجنحتها على الأقطار الإسلامية في الشرق الأوسط ، وبقيت قرونا بعد ذلك إلا على هذا الأساس . فقد كان المسلمون يتطلعون إلى هذا النظام على أنه رمز الوحدة ، وعلى أنه هو الذي يعبر وينطق بأنهم أمة واحدة . وكان هذا النظام في أوقات قوته ، حينما كان رأسه رجال مصلحون وقواد عظام ، كما حدث في عهد محمد المانع ، أو سليمان القانوني ، أو مراد الرابع ، كان يحقق للأمة كثيراً من المعاني التي تنسدها في الخلافة الصحيحة . فكان يحافظ على كيانه ويدافع عن استقلالها ويرد الأعداء عن أراضيها ، وينذب عن عقائدها ، ويصون مقوماتها ، كما أن الأمة كانت لا تبخل عليه أيضاً بأن تؤيده بكل قواها ، وتبذل في سبيله ما في وسعها . فكانت هناك عصور عظيمة صعدت الأمة فيها إلى أوج المجد ، وكان الأعداء يهابونها ويتزلزلون إليها صاغرين . وارتجفت تحت أقدام الجيوش الفاتحة عواصم أوروبا ، وقد باتت كلها في ذعر وبقيت كذلك قروناً .

فمعنى الوحدة - أي الوحدة السياسية والدفاعية بين جميع المسلمين - هو المعنى العزيز والوحيد الذي يجب أن يأسي قلب كل مسلم لاختفائه بزوال الخلافة . وكيف يستطيع المسلمون أن يعيشوا وهم متفرقون دولاً وجماعات ، كل يبحث عن صالحه ولارابطة تجمع شملهم ولا هيئة أو نظام يوحد قواهم ؟ إن التفرق هو باب الضعف والطريق إلى الاضمحلال والفناء ، والاتحاد هو سبيل القوة والعزة والمجد . وهما « فلسطين » قد انتزعت من قلب البلاد الإسلامية ، وشرد أهلها فذهبوا على وجوههم هائمين ، بسبب الفرقة والخلاف وعدم تضافر الجهود ، فأساتها تنهض أصدق دلائل على صحة هذه القاعدة . ولا يكتفي بمجرد وجود الوحدة في الشعور أو في التفكير النظري ، بل لابد أن تتحقق الوحدة وتظهر في صورة عملية ، في صورة نظام سياسي وحرابي جديد . فهذا هو الفراغ الموجود في حياة الأمة الإسلامية الآن . وقد أردنا أن نستعيد بعض ذكريات الدور الأخير للخلافة العثمانية لننبه إليه . وإن مستقبل العالم الإسلامي يتوقف على ملء هذا الفراغ ، فإذا كان هذا العالم قد استطاع أن يبق أربعة عشر

قرنا إلى الآن فإنما كان ذلك بفضل وجود الوحدة ، في صورة أو في أخرى . وإن العالم العربي في هيئة الاستعمار يقف متكئاً متحداً ضده ، ويتعاون على تصديق وحدته والقضاء عليه . فالدول العربية تضافرت لتقيم دولة إسرائيل ، وتؤيد فرنسا في الفتك بالمسلمين في تونس والجزائر ومراكش ؛ وبالجملية تتبادل المنافع وتتعاون فيما بينها على العدوان على أوطان الإسلام وشعوبه . ولا يغفل عن هذا إلا جاهل أو غبي أو نعامة تخفي رأسها في الزمال أو تحت جناحها . والعالم كله يسير اليوم نحو التكتل لا التفرقة . وظاهر أن المستقبل لن يكون للأثم الصغيرة أو الدول التي تعيش عيشة محلية وتظل آسنة في بركتها .

فإذا كانت الخلافة أو السلطنة العثمانية قد انتهت ، ومضى على انتهائها أعوام ، فقد انتهت من قبلها خلافات ودول أخرى . ولكن سر قوة الإسلام كانت دائماً في وحدته ، وسر بقاء شعوبه ، كان دائماً في تضامنها . فإذا تفرق يوماً كان دائماً عند الخطر يعود إلى الوحدة . فالعالم الإسلامي بحاجة اليوم إلى نظام سياسي ودفاعي جديد . وفي وجه الاستعمار والخطر الدائم من جهة الغرب — الذي هو مسئول عما يزرع فيه اليوم من فقر وجهل وضعف ، وما يعانيه من أحران وفواجع — في حاجة إلى رجل موحد للشمل كصلاح الدين ، وتكتل متين كذلك التكتل الرائع الذي صده الغربيين في الحروب الصليبية ، تكتل في أسلوب حديث ، وبأدوات جديدة وأسلحة جديدة للحرب والسلام ، ترد به عدوانهم في حربهم الصليبية الجديدة التي ما فتئوا ولا ينون يشنونها علينا ونحن لاهون .

العدد القادم

سيصدر العدد القادم بإذن الله في العاشر من شوال كما فعلنا في العدد الماضي ، ونسأل الله أن يعيد العيد السعيد على المسلمين وهم أرضى لله وأحسن حالاً وأوفر كرامة .

واللهم آمين ،

هل علمت ؟

- أن عدم إحكامك قفل الصنبور بحيث تنزل منه قطرة ماء كل ثانية يضيع عليك ٧٠٠ جالون ماء في السنة !!
- أن قتل الحشرات التي تعيش على جلود الأبقار وتضايقها يزيد في لحها نصف رطل يومياً ويزيد ما تنتجه من اللبن من ١٠ إلى ١٥ ٪ يومياً .
- أن كمية الحرارة التي تنبعث في الساعة من أجسام ثلاثين طفلاً في حجرة الدراسة تكفي لتحويل ٧ جالون ماء مثلج في درجة الصفر إلى ماء يغلي !!
- أن في العالم ٨٠ مليون جهاز تليفون .
- أن في غينيا الهولندية طريقاً معبداً بأخشاب المهوجني الفاخرة ومغطى بطبقة من أكسيد الألومنيوم ويرجع ذلك لتوفر هذه المواد هناك .
- أن في أمريكا نوعاً جديداً من البطيخ مرن الجلد حتى إنه إذا سقط من ارتفاع على سطح الأرض لم يتحطم وبذلك يسهل نقله إلى كل الأماكن .
- أنه يمكن صناعة نوع من الجبنة من قشور بذرة القطن .
- أن جميع أنواع الطاقة التي يستهلكها العالم كله في سنة كاملة تساوي كمية الطاقة التي تصلنا من الشمس في ثلاث دقائق .
- أن أغلب الدجاج في مختلف أنحاء العالم مصاب بمرض القلب وأن ٧٠ ٪ من الدجاج الذي لا يزيد عمره عن سنة واحدة مصاب بتصلب الشرايين وتعدد الأوردة .
- أن هناك ما يقرب من عشرة أطنان من الميكروبات تعيش في كل قدان واحد تقريباً من سطح الأرض حتى سمك ٢٠ سم .
- أن رطلين من الصلب كافيان لصناعة سلك طوله ٢٠ كيلومتراً يكفي لصنع رفاصات تكفي ٣٠٠ ألف ساعة .
- أن ما ينتجه العالم من الأسمنت في العام الواحد يكفي لتمهيد طريق حول العالم عرضه ٤٥ متراً وسمك طبقة الأسمنت فيه ٢٠ سم .
- أن سرعة ظهور الأسنان للأطفال تنبئ عن سمته في شبابه ذكراً كان أم أنثى .
- أن التدخين هو المسئول الأول عن الإصابة بسرطان الرئة وكذلك أمراض القلب والأوعية الدموية ، وتدخين سيجارة أو اثنتين يسبب تدفق هرمون الغدة الدرقية في الدم بكميات تسبب تقلص الأوردة الدموية ولا يمكن للسكحول كما يظن بعض الناس التغلب عليه .
- وأن نشاط الغدد الذي يمرض الرجال والنساء على الاستمرار في التدخين يسبب سرطاناً في الرئة أكثر مما تسببه مادة التبغ نفسها ، ويقول الدكتور بريان ليدز أستاذ الجراحة بجامعة جورج واشنطن « إن التدخين المستمر هو السبب الأصلي لزيادة نسبة الإصابة بمرض سرطان الرئة »
- أن الدكتور دافيد كلاسون وجد أن فيتامين (ج) الموجود في البرتقال والطماطم أفاد تماماً في علاج ٦٢ حالة حرق عالجها ، كما أنه يمكن استعماله كمرهم حتى للعيون بدون أدنى خوف فهو يخفف الألم ويقلل من كميات المورفين التي تستخدم للتخدير ، ويظهر فلا حاجة لاستخدام المطهرات ويمكن استخدامه على هيئة حقن أو أقراص تؤخذ عن طريق الفم ، ويستعمل كغرفة بنسبة ١ ٪ في ماء ملح لعلاج احتقان الزور والخلق ، كل هذا من الطماطم والبرتقال !!

حول السياسات الاقتصادية

بقلم الأستاذ عيسى عبده إبراهيم
أستاذ إدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة إبراهيم
(١)

« حفلت أعداد هذه المجلة ببحوث قيمة في الربا والفائدة ورأس المال وكذا السياسة الاقتصادية كما ينبغي أن تكون في البلاد الإسلامية . ومن هذا المنبر الإسلامي العالمي أساهم بكلمات موجزة ، هي في حقيقتها دعوة للوصول بهذه الأبحاث إلى توصيات عملية » .

شهد الغرب في القرن التاسع عشر وما انقضى من القرن العشرين نهضة صناعية قلبت الأوضاع ، ومهدت لتقدمه والسير باقتصادياته شوطاً بعيداً ، ممكن له من فرض سياسة غاشمة على كل من آسيا وأفريقيا . وجرى الغرب على تسحية سياسته بأسماء شق منها نشر المدنية الأوروبية ، ومنها قولهم بضرورة الدفاع عن حقوق العالم الحر . وأحياناً يتواضعون فلا يدعون ممارسة الحقوق ، بل القيام بتبعات الرجل الأبيض نحو غيره من الأجناس .

وإذا كنا نخص بالذكر هذه الحلقة الأخيرة من الزمن وهي نحو ١٥٠ سنة فما ذاك إلا لتوافر عوامل شديدة الأثر ، لم تكن معروفة للجنس البشري من قبل ، وكلها في مجال الماديات . مثال ذلك : الكشف عن قوة البخار والكهرباء وآلات الاحتراق الداخلي ، وما سبب هذه الكشوف من تسخير القوى في الإنتاج ، وفي محاولة الاستئثار بطبيات الأرض وبأسواقها جميعاً .

أما النزاع بين الغرب والشرق فيرجع إلى تاريخ أبعد من ذلك كما هو معلوم ، وإذا أردنا أن نرد أسباب الخلاف القائم في الوقت الحاضر بين الغرب والشرق إلى تاريخ لا يذهب بعيداً أكثر مما يجب ، لتعيين القول بأن الحروب الصليبية (التي كانت في الواقع حروب تجارة) تعتبر بداية هذا النزاع المتجدد ، الذي تدرج في حدة بالغة من أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، ونحن اليوم نصطلي بناره ، حق يأذن الله للشرق بنهضة مستنيرة ، يتخذ فيها الأسباب الفعالة المحافظة على مدنيته وعلى موارد الطبيعة التي اكنزتها أرضه ، فأهملها ، وكان هذا الإهمال من أهم أسباب الشقاء الذي عاناه في هذين القرنين الأخيرين .

ولقد تعرض لهذه المسائل الاقتصادية بعض حضرات الفضلاء من رجال الشريعة السمحاء ، وبعض آخر من حضرات الكتاب الذين أخذوا عن الغرب قسطاً من المعارف الحديثة . والذي يلاحظ في هذا الخصوص أنه في معظم الدراسات التي يتناولها رجال الدين ، نجد حرصاً بالغاً على النصوص والروايات والتفسير وترجيح قول على آخر ، وضروب شتى من علوم الكلام . ولا نزاع في أن هذه البحوث تنبئ عن جهد عظيم وتفويض بعاطفة دينية قوية ، ولكنها كثيراً ما تترك الربط بين الأحكام الراشدة التي جاءت بها النصوص ، وبين الصور المتجددة لنشاط الشعوب بعد أن أخذت بما يسمى بالمدنية الأوروبية .

وأما الكتاب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالتعمق في دراسة الثروة الكبيرة التي تركها السلف الصالح ، والذين وقفوا جهودهم على تتبع كتابات الغرب وألوان شتى من مدنيته ، فإنهم ينقلون في كثير من الأحيان صوراً من تفكير الغرب ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين الأحكام المستقرة ، التي آمن بها الشرق وآلى على نفسه ألا يحيد عنها . وهكذا يمكن لنا أن نميز في يسر بين مدرستين ، ويمكن لنا كذلك أن نحس بالفراغ الفاصل بين هاتين الثقافتين . إلى حد أننا نجد كثيراً من البلاد العربية ، ومنها مصر ، تقف حائرة بين ما يدعو إليه كل فريق . من أجل ذلك تُبذل المحاولات تباعاً في سبيل سد هذا الفراغ ، لعلنا نخرج في كل قضية معروضة للبحث ، برأى يحفظ لنا قداسة القديم ولا يحملنا على التخلف عن ركب الحضارة التي بهرت العالم بأضوائها .

الربا :

ولعل قضية الربا من أهم القضايا القديمة التي لا يكاد البحث فيها ينتهي إلا ليتجدد . . . ولقد وقعت لي بحوث قيمة في هذا الموضوع ، اطلعت عليها في هذه المجلة وفي غيرها من المراجع ، ولكن عدداً من المسائل الجوهرية الوثيقة الصلة بموضوع الربا ، لا تزال في حاجة إلى البحث المستفيض . وفي هذه العجالة سأكتفي بضرب الأمثال بمفردات شتى تستوقف النظر ، وتدل على أن حكمة التشريع الإسلامي قد كانت من تاريخ الرسالة المحمدية ، ولا تزال ، تأخذ بمجامع القلوب وتطالع العقول بجديد من المعاني السامية ، بحيث يتعذر لأي باحث في أي عصر أن يزعم لنفسه — فضلاً عن زعمه للناس — بأنه قد أحاط بأي حكم إحاطة تامة .

الربا والتوزيع :

فإذا تركنا مؤقتاً ذلك الجدل الدائر حول أنواع الربا، وما كان منه محرماً بالنص القاطع وما كان محرماً لدفع الشبهات . . . وإذا تركنا كذلك تلك المحاولات الكثيرة المتوازنة بين الفائدة والربا، والقول بأن كل فائدة ربا، وأحياناً أخرى بغير ذلك. وإذا تركنا أيضاً ذلك التمييز العجيب بين فائدة قرض الاستغلال وفائدة قرض الاستهلاك، والفائدة التي يدفعها الضعيف الفقير، وتلك التي يدفعها صاحب المشروع الذي يجمع مدخرات أوساط الناس والضعفاء منهم . . . أقول بأننا إذا تركنا هذا الجدل كله — وقد طال وتكرر — نجد أن كل هذه البحوث تدور في حلقة مغلقة تعرف في دراسة الاقتصاد بالتوزيع : أى إعطاء كل عامل من عوامل الإنتاج نصيبه من ثمرات الأرض أو الصناعة أو غيرها من ضروب النشاط الاقتصادي .

على أن شيئاً من التأمل يدعونا إلى الشك في هذا التحديد الذي سارت عليه الكثرة الغالبة من الباحثين . وعندى أن تحريم الربا يرجع إلى أسباب وثيقة الصلة بالإنتاج . وأن هذا الذي يبدو من آثار سيئة للتعامل بالربا عند توزيع الثمرات ، إن هو إلا من قبيل أعراض الداء ، لا الأصل فيه .

ذلك أن الإنسان ككائن حي ، يحىء إلى هذه الدنيا لينشئ من حوله مجالا من الاستهلاك وهو من اللحظة الأولى يعتمد في الإبقاء على حياته — فضلا عن استمتاعه بما فوق ذلك — على طيبات كثيرة منها طيبات مجانية كالهواء والماء ، ومنها طيبات لها ثمن ، كالطعام والكساء . . . بل إن هذه الطيبات المجانية التي تجود بها الطبيعة من غير حساب ، كثيراً ما تتحول إلى سلع اقتصادية ، لها ندرة وبالتالي لها ثمن . فالهواء في المباني الكبيرة لا يجود إلا إذا دفعته الآلات عكساً وطرذاً ، والماء النقي ، بارداً أو ساخناً ، له ثمن كذلك .

فالإنسان من مولده إلى مماته يستهلك العروض والسلع مما تجود به الأرض أو البحار أو الصناعات : أى أنه يسحب النفعة وينقص الخيرات ، وإذا فارق الحياة ، يأتى إلا أن يشغل الأحياء بطائفة من الأعباء مما أمرت به الشرائع سترأ لهذا الجسد ، وتكربماً لشيء خلقه الله ثم أماته ، فتعين على الأحياء أن يكرموا بهد أن فارقت الحياة .

فالإنسان إذن قوة استهلاكية ، كالنار تأكل ما تصيبه ، حق لا تجد فتأني على ذاتها وتكون هشيماً تذروه الرياح .

هذا الإنسان الذى يعيش عبثاً على الدنيا يستنزف من أرزاقها ، يتخذ فى حياته سبيلاً من ثلاث : الأولى أن يعوض ما أفناه ، والثانية أن يزيد ، والثالثة أن يقصّر . فأما عن الأولى ، فتتمثل فى حياة الفرد القانع الذى يسعى إلى إنتاج ما هو فى حاجة إليه ليستهلكه ، أو ليستهلك بدله ، فلا هو عبء على غيره ، ولا هو بترك من ورائه خيراً يتقلب فيه غيره من الناس .

ومثل هذا الفرد تنقضى حياته دون أثر يذكر عنه بخير أو بشر ، لأنه عاش لنفسه لا أكثر ولا أقل .

وأما الثانية ، فتتمثل فى حياة الفرد الطموح الذى يكدح حتى ينتج من الطيبات والأرزاق فوق الذى يكفيه ، ثم ينحّيه جانباً ليبقى على الأرض شاهداً على أنه قد بذل من الجهد فوق ما كان يكفيه . ومن هذا الفضل الذى يخلفه كل مجتهد طموح ، تتألف المدخرات وتتجمع مظاهر المدنية جيلاً بعد جيل ، وتتفاوت أنصبة الشعوب من أسباب الرفاهة التى حرصت الأجيال على ادخارها ورفع بعضها فوق بعض درجات . وأما الثالثة ، فهى فى الواقع محل النظر فيما نحن بصدده ، لأنها تتمثل فى حياة الفرد الذى يستهلك من الطيبات والأرزاق أكثر مما ينتجه ، فهو كلٌّ على خلق الله ، ينتزع من خيرات الأرض قدرأ لا يعوضه ، فإذا فرغت منه هذه الأرض ، وتخلصت من ظله ، وحوسب عن الفترة التى قضاها حياً يرزق ، ظهر العجز الذى تخلف عن وجوده فى هذه الحياة الدنيا .

ولو كان الأمر مقصوراً على حياة فرد بعينه لما استحق الذكر ولا الحساب ، ولكنه التشريع العادل يقيم القسط بين الناس ويضع الميزان .

وإنما تتضح البلية من أمر هذا المخلوق ، حين ننظر فى حالة الأرض إذا رزمت بمخلوق كثير من طرازه ، وحين ننظر فى حالة المقصر الذى يغلو فى التبلد إلى حد أنه لا ينتج شيئاً على الإطلاق .

فلننظر إذن فى النتائج التى تترتب على تواجد عدد كبير من المخلوق ، الذين لا هم لهم إلا أن يستمتعوا بما أنتجه غيرهم ، ولننظر فى حالة أى مجتمع يشيع فيه هذا الطراز من الناس ، بفرض أن هذا الفريق من المستهلكين قد وجد عدداً من الكادحين يرضون بهذه الحال من سوء التوزيع ، أو غياب العدالة عن المجتمع الذى يعيشون فيه .

النتيجة واضحة ومؤكدة ، وتتلخص فى أن تواجد هذه المخلوقات التى لا تنتج

ولو بقدر ما تستهلك ، تصيب المستوى العام للرفاهة بالجمود أولا ، ثم بالتناقص بعد ذلك .
وبقدر الزيادة في عدد المتبلدين ، تسرع الخيرات إلى النضوب ، وترتكس الأرض ومن
عليها بقدر ما جنى عليها القاعدون عن الإنتاج .

وهذه هي حال المرابين ومن في حكمهم من خلق يعيشون على فوائد القروض .

وقد يبدو أن في هذا التحليل نوعا من الاتهام لفريق المدخرين الذين يمدون
النشاط الاقتصادي برءوس الأموال ... ومع ذلك ، ليس فيما نقول به اتهام نجح به من عندنا ،
بل هو ترديد لحجة المرابين ، فهم يقولون في تبرير الفائدة ، إن صاحب القرض يقدم ماله
وينتظر ، أو يقولون بأن المقرض هو صانع الانتظار . أو إن عمله هو الانتظار ...
كأنما هذا التصرف السلبي بمجرد الكف عن إتيان شيء نافع ، قد كان في ذاته عملا
إيجابيا يستحق من أجله المقرض المنتظر إن يستمتع من الحياة بما يشاء . ومن الجلي
الواضح أن هذه الطيات التي رفع المقرض يده عنها وترك لغيره أن يشتمرها ، قد كانت
صالحة لأداء وظيفتها سواء انتظر هو أم لم ينتظر .

وقد يقال بأنه كان في وسعه أن يستهلكها ، وبأنه قد مكن لغيره من تسخيرها
والانتفاع بها ، بمجرد الكف عن الاستهلاك . والرد على ذلك أن الكف عن
الاستهلاك ينتهي إلى الادخار : أي تمكين رأس المال من أن يتواجد . وإلى هنا لا يزال
تصرف الفرد سلبيا ، وعلى غيره من المنتجين الإيجاب ، بمعنى القيام بعمل منتج .

ثم إن الكف عن الاستهلاك تصرف سلبي يشترك فيه كل من يدخر ، وأن مجرد
الادخار ليس يكفي لتبرير الحصول على الثمرة التي تعود من استغلال المدخرات ، لأن الثمرة
بدورها كانت وليدة جهد جديد ، بخلاف الجهد الذي بذل لأول مرة عند إيجاد
هذه المدخرات

ثم إن القائلين بتبرير الربا والفائدة ، يأتون بأسباب أخرى تنهض عندهم حجة على
استحقاق المقرض لجزاء ثابت . من ذلك قولهم بأن المقرض يتحمل أنواعا شتى من
المخاطرة كهلاك الدين . وفي هذا القول مغالطة واضحة ، لأن الذي يتحمل المخاطرة
ويعوض الديون المهلكة هو ذلك الفريق من المدينين الذين يحافظون على عهودهم
ويردون الدين والفائدة . وبالتالي يكون سعر الفائدة مرتفعا بالقدر الذي يعوض ماضع
من رأس المال عند بعض المدينين .

فإذا أضاع زيد قرضا فإن غيره من المقترضين الصادقين يحمل العبء عنه ، وبهذا
يتحمل بعض المقترضين أعباء بعض . وأما المقرض فإنه يرتب أمره بحيث لا يتحمل من

المخاطرة شيئاً ، عن طريق رفع نسبة العائدة بقدر ما يخشاه ، على وجه العموم ، في جميع عمليات الإفراض من احتمال ضياع بعض الأموال المقدمة في صورة قروض .

والواقع أن الحجة الكرى في تبرير الربا هي ما بدأنا بمناقشته ، أى الانتظار ، أو الكف عن العمل المنتج ، وترك هذا العمل والمخاطرة أيضاً لغيره من العاملين .

وحين أنى الإسلام بنصوص صريحة تشير إلى أن الله سبحانه يحقق الثمرات التي من هذا القبيل . إنما أراد أن يردع آدمى عن أن يعيش من جهود غيره ، لأن هذا الموقف السلمى لا يأتي بخير للمجتمع ، وبالتالي يكون تحريم الربا داعياً لنشاط كل فرد ، بحيث يعيش في مجال من الإنتاج ، كما أنه يعيش في مجال من الاستهلاك تقضى به طبيعته التي تفتقر إلى الكثير من الطيبات .

على أن هذا المعنى بذاته قديم . وصل إليه فلاسفة الإغريق في تدليلهم على خلود النفس ، واتخذوا من الحركة رهاناً على ما يقولون به . وعندما أن الحركة هي الحياة .

وحين تزايل النفس هذا الجسد الفاني ، تبدأ عنه الحركة والحياة جميعاً . ومالم تكن الحركة خاضعة للعقل المدبر ، ومستهدفة أمراً نافعا فهي اضطراب عابث لا يجوز عقلا على السائمة وما في حكمها . بل إن من البهائم ما يميز التصرفات ، وما كان لبشر أكرمهم الله بالقوة العاقلة ، أن يضطرب في حياته بحركة لا إرادية . ولا أن يعيش بغير هدف يشغله ، علا أو هان ، بقدر ما تنهض إليه همته .

يخلص مما تقدم أن حجة القائلين بالانتظار كمبرر لاستحقاق الثمرة المضمونة المقرض هي حجة تصيب الإنتاج بالعمى ، وأن أكل الربا معناه الأخذ من متاع الدنيا بنصيب كاف ، دون الاشتراك في الانتاج .

وهذا مبدأ يهدم الاقتصاد من أساسه ، وتتضح خطورته إذا تصورنا تطبيقه على نطاق واسع بحيث يزيد المنظرون على الكادحين . وتتضح خطورته أيضا إذا فرضته السياسة الدولية الغاشمة بقوة السلاح ، دون التفات إلى منافاه لطبيعة الأشياء . فإن صاحب المال الذي يفرض على الكادحين أن يعملوا ، ويختص نفسه بالانتظار ، قد يظفر بما يريد من الطيبات زمنا ، ثم لا تلبث القوانين الطبيعية أن تعترضه حتى تقضى عليه .

« الحديث موصول »

سجّات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر بالبلاكان

رمضان في الحجاز

لا تعمل دواوين الحكومة نهاراً في رمضان . بل تعمل بعد صلاة العشاء وينصرف الناس منها إلى دورهم ليتسجروا ، ويستريحوا غير مضطرين إلى التكبير للعمل . وهذا عمل مستحسن أيام الحر والصيام . وعسى أن يعمل الموظف في ساعتين من الليل أكثر مما يعمل في خمس من النهار . وكذلك الأسواق أكثر عملها بالليل ، تجدها مضادة مزدحمة بالناس . فيها رواد وعليها بهجة وسرور .

والناس يتزاورون بالليل بعد صلاة التراويح . ولكن ليس لهم من العناية بالسهر والاستماع إلى القرآن في الدور الكبيرة ما لأهل مطر .

ويميز رمضان في هذه البلاد احتشاد المصلين والطائفين في المسجد الحرام ، وإفطار الناس في المسجد على ماء زمزم وقليل من التمر قبل الصلاة .

وكذلك يحتفل أهل المدينة بالاجتماع في الحرم النبوي والإفطار فيه . وشهود الصلاة في أحد الحرمين رجاء كل صائم من أهل مكة والمدينة وما حولها ، وإنه لأنس للنفس وخشوع للقلب ، وما أروع صلاة التراويح في الحرم . إن فيها لمراى ومعنى تدركهما القلوب والأبصار .

وأما الصيام في جدة على حرها ورطوبتها فييسره قلة العطش لرطوبة الجو ، ويروح عن الناس أن تهب الشمال هناك ، وما أكثر ما تهب الشمال .

وأما الصوم في مكة فشاق لشدة الحر وجفاف الهواء . وكم يقاسى الصائمون فيها من العطش ، وفي المدينة أيام على الصائمين شديدة .

إن في مكة والمدينة من مظاهر الفرح والبهجة في رمضان ، وفيهما من الجمال والروعة ما يهون مشقة الصيام .

الحضارة الفاسدة

الإنسان في بداوته يصاحب الطبيعة ، يتعرض لشمسها وهوائها ، ويرد ماءها ويتتبع مراعيها وينطلق في أرجائها يتخير منها مقامه ومرعاه ، وهو كافل نفسه بحمها من حيوان أو لص ، شاحذ قواه النفسية والبدنية ، ومهتد طريقه ، عارف مكانه وزمانه بالنظر في النجوم ومعالم الأرض .

والحضارة خير له إن أسكنته الدار ولم تمنعه الشمس والهواء ويسرت له الطعام والشراب ولم تحرمه الحركة والنشاط ، وإن حمته الوحش واللص ، ولم تذهب بشجاعته وقوته واعتداده بنفسه ، وإن آوته ولم تقطعه عن الخليقة المحيطة به برها وبحرها وجبلها وسهولها ، ونجومها وكواكبها وبروجها .

لا أرى أضر بالإنسان من الحضارة الناقصة الفاسدة . تنقله من سعة الطبيعة وشمسها وهوائها إلى الدور التي تشبه القبور ، أو تقتله بالطعام والشراب والكسل والدعة والترف ، أو تضعف حسه وعقله بالبعد عن مرأى الطبيعة : مساريحها في السماء والأرض ، أو تذلل نفسه وتحبس فكره وتذهب بكرامته بسلطان جائر وقانون فاسد . إن تكاليف الحضارة الصحيحة ثقيلة . وشروطها كثيرة . فالأمة التي لا تحمل هذه التكاليف ولا تفي بهذه الشروط تحرم مواهب الطبيعة ولا يعوضها عنها العلوم والصناعة ، والبدوى أرغد عيشاً وأقرب إلى الإنسانية في كل شيء ممن يعيش في حضارة فاسدة وبيئة راكدة .

الخطرة والسممة والمصادفة

لا تحقر الخطرة في فكرك واللمحة من بصرك والمصادفة في عملك ، فربما فتحت كل واحدة لك سبلا ، ومدت أمامك آفاقا . وكـ من اختراع أدت إليه خطرة لم يحقرها صاحبها أو هدت إليه لمحة لم يهملها لائحها ، أو نهبت إليه مصادفة لم يغفل عنها المصادف .

واعلم أكثر ما يميز بين المخترعين والمفكرين والؤلفين وبين غيرهم اهتمام أولئك بكل ما يعرض لهم والتأمل فيه ووصله بما يليه ومتابعة البحث والضبط والاستقراء حتى يهتدى إلى نتائج تتبعها نتائج ، فتخترع الآلة أو توضع النظرية أو تتأسس قواعد العلم .

هداني إلى هذه الكرامة أني تنهت من رقادي اليوم وأنا صائم فأحسست الهمود

والسكّال فلم أهم بعمل يحتاج إلى مثونة من الجسم أو العكر ، ونظرت حولى إلى متناول بدى فرأيت مجلداً من كتاب الذخيرة لابن بسام وقد رأيت من قبل مرات فلم أعبأ به ففتحتّه على فصول للكاتب العبقرى ابن شهيد خفى فى نفسى الإعجاب بهذا الرجل النابغ . وذكرت ما جال فى فكرى حينما أشرفت على نشر أقسام من هذا الكتاب ، أن ابن شهيد جدير أن يشاد بذكركم ويعترف بمكانه وعادنى الأمل فى أن أخرج كتاباً عنه يلفت النظر إليه ، ويدعو الأدباء إلى العناية به وتقصى أخباره ، وآرائه ورسائله .

قلت لنفسى إن تناولى هذا الكتاب على كلال وتهاون أثار فى الفكر هذا كله فإن صح عزمك فستخرج هذه اللمعة أو المصادفة كتاباً عن ابن شهيد « وتلك الأمثال نضربها للناس » .

غرور الإنسان

إذا سألت إنساناً ماذا فى جيبي أو ماذا فى هذه الحجرة وهو لم يدخلها أجاب متعجباً : وما علمى بما فى جيبيك ؟ وما أعلمنى بما فى حجرة لم أدخلها ولكن هذا الإنسان الذى يعجب أن يسأل عما لم يره لا يتحرر من إرسال وهمه فى أطباق العالم ليثبت أو ينفي بغير علم ، فهو يتكلم فى مبدأ العالم ومنتهاه وعما فى النجوم وعما وراءها تكلمها لا يهدى إليه تفكير ، ولا يزنه تثبيت . لا أخرج أن ينظر الناظر فيرتب مقدمات تؤدي إلى نتائج على أن يصف مقدماته ونتائج بوصفها من العلم أو الظن أو الشك ثم يقف عندها لا يتعدها بغير بينة . ولكن كثيراً من الناس يتكلم فى المحجوبات عن حقائق هذا العالم كلام العالم الثبت وهو لم يعلم ولم يتثبت ولم يحاول العلم والتثبت . وقد طوع للإنسان غروره أن يحسب أنه وحده فى هذا العالم عاقل عالم مفكر وليس فى العالم أرضه وسمواته شيء غيره يعقل . ليس فى العالم أرضه وسمواته مخلوق له عقل وعلم وفكر ، ولا خالق يعلم ويدبر أمر هذا العالم اليتيم المهمل . فليت شعري كيف خلا العالم من العقل إلا هذا الكائن الضئيل الضعيف . هذا الكائن الضئيل الضعيف ينكر كل الإنكار ويأبى كل الإباء أن يكون فى أعمال الناس وفيما يقع على الأرض بل ما يكون فى غير الأرض شيء إلا له سبب لا يقبل أن ديناراً مثلاً متفوش دون صانع . ولكن هذا الكائن الضئيل الضعيف الذى حزم العالم كله من العقل والفكر إلا نفسه ، يقبل أن يكون العالم بغير عقل وسيره بغير سبب وبغير تدبير وتصريف . أليس هذا جهلاً ؟ أليس هذا غروراً وحمقاً ؟

شفاعة الإمام

للأستاذ علي أحمد باكثير

(١)

(في منزل الإمام أبي حنيفة . يدخل صاحبه أبو يوسف)

أبو حنيفة : ماذا وراءك يا أبا يوسف ؟ هل علمت لي علم جارنا الطروب الذي افتقدنا
صوته منذ ليل ؟

أبو يوسف : نعم . . . قيل لي إن العسس كبسوا بيته فوجدوه يعاقر الحجر فأخذوه
إلى الحبس .

أبو حنيفة : ويح المسكين ! هلم بنا يا صاح نعد على أمير المدينة لنكلمه فيه .
أبو يوسف : رويدك يا أبا حنيفة . طالما احتال الأمير لتكرمه يوما بزيارتك فلم
تفعل ، ثم تغدو اليوم عليه لتشفع لكبير فاجر قد أراح الله الناس
من شره !

أبو حنيفة : (في شيء من الحدة) أعترضاً على يا يعقوب ؟
أبو يوسف : نعم . . . إن الدين النصيحة ، ولو كان الناصح يعقوب ، والمنصوح
أبا حنيفة النعمان .

أبو حنيفة : صدقت ، ولكن أين المنكر ويحك ؟
أبو يوسف : لا ينبغي لأحد أن يشفع في حد من حدود الله .
أبو حنيفة : أنا لا أشفع في حد يقام عليه وإنما ألتبس منهم إطلاق سراحه بعد ذلك .
أبو يوسف : الحبس جدير بمثله فطالما أزعج الناس ليلا بصوته .
أبو حنيفة : أشهد ما كان صوته ليزعج الناس ، فلقد كان عذبا نديا يطمئن به النائم ،
ويستأنس به المريض المكروب وطالما آتسنى في جوف الليل .

أبو يوسف : لكنك تعلم أنه كان يشرب طول الليل على غنائه .
أبو حنيفة : يعقوب . . . أمضى معي إلى الأمير أم أمضى وحدي ؟
أبو يوسف : بل أمضى معك ياسيدي ولكن بعد أن يطمئن قلبي إلى أن ذلك هو
ما ينبغي لأبي حنيفة أن يعمله !

أبو حنيفة : ويحك يا يعقوب إن لهذا الجارأيادي عندى تقتضي المروءة أن أجزيه عليها

أبو يوسف : ما سمعت كالיום عجباً . ترى أى أباد يسديها سكير مثل هذا لأبى حنيفة ؟
 أبو حنيفة : ما خطبك اليوم يا يعقوب ؟ أو ليس يسمعك يا بنى أن تصدق قولى ؟
 أبو يوسف : كلا ياسيدى حتى أسمع تفصيله منك لأكون على بينة من أمرى !
 أبو حنيفة : (محتدأ) اصغ إذن وافهم ! إني كنت أسمعه يتغنى طول الليل فتنتال على خاطرى معان واطائف ما كانت لتخطر لى لولاه . كنت أسمعه فأقول
 لنفسي إذا كان هذا يعاف النوم ويقضى الليل كله مردداً .

أضاعوني وأبى ففى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
 وهو لا يرجو ثواباً على ذلك من الله ولا جزاء من الناس ولا منفعة تعود
 عليه فى دنياه فما بالى أتناقل عن القيام لربى وأنا أرجو ثوابه وأخاف
 عقابه وأطمع فى خير ما عنده وأنا أجد إلى ذلك كله من لذة المناجاة
 وتلاوة آيات الله ما ينسبى كل لذة وما أحقر معه الدنيا وما فيها !

أبو يوسف : هذه ياسيدى يد واحدة فماذا غيرها ؟
 أبو حنيفة : ألقى فى روعى أن هذا الرجل ما تخبر هذا البيت ليتغنى به كل ليلة إلا لأن
 حيفاً ربما وقع عليه من بعض من كان يرجوهم من الناس . فكنت أقول
 لنفسي : الحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعاً فلا أشكو منهم ظمناً
 ولا حيفاً ، وأفقرنى إليه وحده وهو العادل الرحيم لا يظلم أحداً
 ولا يقسو على أحد .

أبو يوسف : هذه ثانية والثالثة ؟

أبو حنيفة : (مطرقاً على حاله عاقداً يديه فوق حاجبيه كدأبه حين يعلى المسائل
 على أصحابه) : كنت أحس من نبرات صوته وطريقة ترجيعه فى الغناء
 أنه — لا بد — عاكف على شراب ، فكنت أعجب من أمره كيف
 يرفع عقيرته باللحن ليدل العسس على مكانه ويرشدهم إلى نفسه ، فكنت
 كلما قمت ليلة وسمعته بعد هناك تعجبت من طول حلم الله وستره عليه فأقول
 لنفسي : هذا ستر الله سبحانه على هذا المتهتك فما بالك ستره على المستورين
 من عباده ، (يرفع رأسه فيدهش إذ يرى أبا يوسف منهمكاً يكتب
 ما يسمع) ويحك ما تصنع يا يعقوب ؟

أبو يوسف : أقيد ياسيدى ما سمعت .

أبو حنيفة : هيه ويلك . . . أكنت تعمدت خلافى لتستدرجنى إلى هذا ؟
 أبو يوسف : هو ذاك ياسيدى الإمام فهب لى سوء أدبى اليوم معك .

أبو حنيفة : (ضاحكا) ويلك يا أمير من قصير . ما أرى إلا أن هذا سينتهى بك يوماً إلى السلطان لالتشفع إليه في مكير بل لتتربع على السرير بعد الحصر !

أبو يوسف : معاذ الله ياسيدي والله لا ...

أبو حنيفة : (يقاطعه) مه لا تخلف على ما في غيب الله فعسى أن ينفع الله بك الناس يوماً وكل ميسر لما خلق له . قم بنا الآن إلى الأمير !

أبو يوسف : اليد الرابعة ياسيدي الإمام : دعني أسمع اليد الرابعة .

أبو حنيفة : الآن وقد كشفتك ؟ ! انهض ويلك !

(٢)

(في مجلس أمير الكوفة)

الأمير : مرحبا بك يا أبا حنيفة ألف مرحب !

أبو حنيفة : ما هذا الذي صنع رجالك ؟

الأمير : أي شيء صنعوا ؟

أبو حنيفة : اعتنقوا بغلتي خالوا بيني وبين النزول وأقبلوا بي راكبا حتى وطئت البساط .

الأمير : أنا أمرهم بذلك يا أبا حنيفة تكبرمة لك .

أبو حنيفة : لعلك بالغت في تكبرمتي عند القدوم لتمهد لنفسك سبيل الاعتذار عن

قضاء حاجة قد ألتمسها منك ؟

الأمير : حاشى يا أبا حنيفة . إنه ليسعدني أن تقضى لك عندنا حاجة . فطالما

التمسنا هذا الشرف فأعيانا ، اقترح ياسيدي واحتكم فإني أنا ورجالي

رهن مشيئتك . قل لنا ما حاجتك ؟

أبو حنيفة : جار لي أخذه عسكم فأخلوا منه بيته ليعمروا به مكانا في سجنكم .

الأمير : قد وهبنا لك جارك .

أبو حنيفة : ألا تنتظر حتى تعلم ما ذنبه ؟

الأمير : مهما يكن ذنبه فلن أرد شفاعتك .

أبو حنيفة : مهلا فما جئت لأشفع له وليسكن لأراه .

الأمير : ائت به يا غلام !

الغلام : بمن ياسيدي الأمير ؟

الأمير : ويلك سل عن جار أبي حنيفة بين المسجونين فأتنا به !

- أبو حنيفة : (يضحك) ما اسمه يا أبا يوسف ؟
- أبو يوسف : اسمه عاصم بن عبد العزيز .
- الأمير : اثنتا بكل من اسمه عاصم بن عبد العزيز ... انطلق !
- الغلام : سمعاً يا سيدي الأمير (يخرج) .
- الأمير : أما من حاجة أخرى يا أبا حنيفة ؟
- أبو حنيفة : لا وجزاك الله خيراً .
- الأمير : هل لك أن تصيب عندنا ذواقا ؟
- أبو حنيفة : إني اليوم صائم .
- الأمير : وصاحبك هذا الفقي ؟
- أبو حنيفة : هذا أبو يوسف يصوم يوم أصوم ويفطر يوم أفطر .
- (يدخل الغلام يسوق رجلا في يديه القيد)
- الغلام : ما وجدنا بهذا الاسم يا سيدي الأمير غير هذا .
- الأمير : أهذا طلبتك يا أبا حنيفة ؟
- أبو حنيفة : لعله هو !
- الأمير : عجبا كأنك لا تعرفه ؟
- أبو حنيفة : من اليسير أن أعرفه (للرجل) أأنت الذي كنت تغني :
- أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كرهية وسداد ثغر ؟
- عاصم : يا ويلتا أ كنت تسمعني يا سيدي الإمام ؟ إني أعدك ألا أعود لمثلها .
- أبو حنيفة : بل عد إلى مثلها فما كان للعسس أن يأخذوك من أجل أن الله قد وهبك صوتاً عذبا فجعلت تترنم به في جوف الليل إظهاراً لنعمته عندك !
- عاصم : أصلحك الله يا سيدي ما لهذا أخذني العسس .
- أبو حنيفة : فلعلهم أخذوك لأنهم حسبوا أنك كنت تنهمهم جهاراً بأنهم أضاعوك وما أضاعوك ؟
- عاصم : لقد كنت يا سيدي
- أبو حنيفة : (مقاطعا) أعلم أنك كنت تلتمس العزاء في الغناء كما يلتمس غيرك العزاء في تلاوة القرآن . أليس هذا ما أردت أن تقول ؟
- عاصم : كلا يا سيدي
- أبو حنيفة : لا تنكر ويحك . ألا تدري يا عاصم بن عبد العزيز أنني هممت ذات يوم أن أزورك لأبلغك أن لو استعملت صوتك العذب في تلاوة آيات الله

مكان باطل الشعر لكان ذلك أشكر لنعمة الله التي عندك !

عاصم : (في اندفاع كما خشي أن يؤول قوله) ياسيدي لقد كنت أشرب الخمر !
(يحجم الجميع متعجبين)

أبو حنيفة : (في هدوء غير منتظر) أعلم ذلك يا عاصم !

عاصم : تعلم ذلك ؟

أبو حنيفة : نعم أعلم أنك كنت تقرن الباطل بالباطل ولكن أترك كنت تشربها
لو كنت ترتل آيات الله ؟

عاصم : معاذ الله ياسيدي الإمام ! (يبكي)

أبو حنيفة : ويحك ما يبكيك ؟ أوظننت أنني جئت لتقريبك وتأنيبك ؟ لا والله
يا جاري العزيز ما جئت إلا لأراك وأطمئن عليك منذ افتقدت صوتك

الذي طالما آتسنى في ظلام الليل !

عاصم : (ماضيا في بكائه) ليس هذا الذي أبكاني يا أبا حنيفة ولكن أن تسأل

عني وتحضر لرؤيتي وأنت تعلم أنني أعصى الله في كل ليلة !

أبو حنيفة : هذا حق الجوار يا عاصم لا يسقطه عني أنك تعصى الله في كل ليلة ، فالله
وحده هو الذي يدين العباد بذنوبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

عاصم : والله ياسيدي ما أدرى كيف أشكرك ، ولكن والله لأتوبن توبة نصوحا
تجعلني أهلا لجوارك .

أبو حنيفة : جزاك الله عني خيرا يا عاصم . الآن قلدتني منة لن أنساها لك ما حييت !

عاصم : ماذا تقول ياسيدي الإمام ؟ أي منة لي عليك ؟ أنت صاحب المنة عليّ !

أبو حنيفة : رويدك يا بني لقد كنت أدعو الله كل ليلة أن يهديك ويتوب عليك
فكنت أرتقب كل ليلة نتيجة دعائي فأراك وقد انقطعت عما كنت فيه .

حتى إذا افتقدت صوتك سألت عنك ، فإذا أنت في الحبس ، فأشفقت أن
يكون في سوء عملي مما لا علم لي به مامنع من قبول دعائي . فكيف

لا تكون صاحب المنة عليّ وقد بشرتني الآن بأن الله استجاب الدعاء
وأنه سبحانه وتعالى غير ساخط عليّ ؟

عاصم : (تغرورق عيناه بالدموع) يا أبا حنيفة هل لك أن تسدي إليّ جيلا بعد ؟

أبو حنيفة : اقترح يا عاصم .

عاصم : أنشدك الله ألا ما أرشدتني إلى أفضل عمل عند الله لأقوم به ؟

أبو حنيفة : وإن شق عليك ؟

- عاصم : وإن شق عليّ !
- أبو حنيفة : كنت تردد يا عاصم :
- أضاعوني وأى فقى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
- عاصم : أجل ياسيدي الإمام .
- أبو حنيفة : فهذه ثغور بلاد الإسلام لا ترد من ينتدب المدافع عنها من فتيان المسلمين !
- عاصم : (يهتف فرحاً) أجل والله ياسيدي الإمام أئن خرجت من هذا الحبس معافى لأنطلقن إلى ثغر من تلك الثغور فأجاهدن في سبيل الله حتى ألقى الشهادة !
- أبو حنيفة : (يتأمل وجهه بشراً) بخ بخ لك يا عاصم ! (للأمر) ماذا ترى الساعة أيها الأمير ؟ أتبقيه بعد في سجنه ؟
- الأمر : ويحك ياسيدي الإمام أبعد هذا الذي سمعناه منك ومنه ؟ اذهب يا عاصم فأنت مطلق السراح !
- عاصم : شكرآ لك ياسيدي الأمير .
- الأمر : كلا لا فضل لي عليك . الله هو الذي أطلقك . (يلتفت للغلام) اسمع يا غلام . . انطلق فمرهم بمحسوا كل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا فليطلقوهم جميعاً .
- أبو حنيفة : شكر الله فضلك أيها الأمير . قد أبيت إلا أن تفضل علينا .
- الأمر : والله يا أبا حنيفة ما شهدت كاليوم هدى وحكمة ! والله لو بعث به عمري لكنت الرابع .
- أبو حنيفة : الفضل لعاصم بن عبد العزيز .
- الأمر : أجل . . لولاك يا عاصم ما أولاني أبو حنيفة شرف زيارته .
- أبو حنيفة : يا ابن عبد العزيز هل لي أن أوصيك ؟
- عاصم : حباً يا سيدي الإمام وكرامة !
- أبو حنيفة : إذا ما أكرمك الله بالشهادة فلا تنس أن تشفع عند ربك لهذا الأمير الكريم . . ولجارك أبي حنيفة !

باب الكذب : نقد وتعريف

النظريات السياسية الإسلامية : الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس

١ — سبق الإسلام الشرائع الحديثة بتقرير الحكم على أسس ثلاثة مجتمعة ، هي دعائم الحكم الإسلامي ، فإن اختل ركن منها تداعى بنيانها ، ولم يكن الحكم إسلامياً ؛ ولم يكن ذا صلة بالدين ، لا في شكله ولا في جوهره .

أول هذه الأسس : تقرير السلف الصالح - تابعين لوصايا النبي الكريم - أن الحكم عهد بين الحاكم والمحكوم ، تؤخذ المواثيق على الحاكم أن يراعى العدل والمصلحة ، وإقامة الحدود ، وتنفيذ أحكام الدين ؛ وعلى المحكوم السمع والطاعة في المنشط والمكره فيما لا معصية فيه ، فإن كانت المعصية فلا سمع ولا طاعة . هكذا كان النبي يأخذ العهود ، وهكذا كانت بيعة الخلفاء الراشدين .

وثاني الأسس : الشورى في أدق معانيها ، وذلك أمر قد قرره الكتاب ، فأمر نبيه الأمين الذي ما كان ينطق عن الهوى بالشورى في كل أمر يتصل بالحكم عن قرب أو بعد ، فقد قال تعالى : « وشاورهم في الأمر » وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » والشورى أساس الرضا بالحكم ، والطاعة عن طمئنان قلب ، والسمع مع استجابة النفس ؛ وهي تمنع الزلل . وتجنب الخطأ ، وهي تجعل الحاكم على صلة نفسية بالمحكوم دائماً .

وثالث الأسس : العدل الشامل ، الذي لا يفرق بين عدو وولى ، العدل مع الرعايا والدول ؛ والعدل في المحبة والبغض ، فقد قال تعالى : « ولا يجرمكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ولم يعرف التاريخ حكماً يعدل مع أعدائه كما يعدل مع أوليائه كحكم الإسلام : يعدل في الحرب وفي السلم ، وفي العهد وفي الخيانة ، والعدل مع الخائنين بالنبد إليهم على سواء ؛ فهو يقرر القتال ويمنع الاعتداء ويأمر بالتقوى في الحرب فيقول الله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

٢ — هذه أسس الإسلام في الحكم والسياسة ، وكل ما يتصل بالحياة ، نشير إليها الآن ؛ لأننا استعرضنا كتاب الأستاذ محمد ضياء الدين الرئيس (النظريات السياسية

الإسلامية) وهو في هذا الكتاب قد اتجه إلى فلسفة السياسة الإسلامية؛ والمناحي التي نحت نحوها الطوائف الإسلامية، والمذاهب المختلفة، مبيناً ما تجتمع فيه من أصول وما تفرق فيه من فروع، وقد كان بينا من دراساته للمذاهب المختلفة أنها كيفما كان اختلافها مرتبطة دائماً بالقيم الخلقية العليا، لا تتجاهلها ولا تنفصل عنها.

وقد عرض الكاتب في كتابه القيم لنشأة النظريات في السياسة الإسلامية، وتكوين الفرق والأحزاب، وحقيقة الأمانة ووجوبها، والعقد السياسي أو الاجتماعي الذي طبقه الإسلام تطبيقاً دقيقاً في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم أجمعين، ثم تعرض للولايات التي تفرع من الولاية الكبرى وهي الإمامة العظمى؛ ثم بين عدل الإسلام مع مخالفيه الذين يستظلون برايته، ويخضعون لولايته، وما منحهم إياه من حرية دينية لم ينالوها من أهل دينهم إن اختلفوا معهم ملة أو جنساً أو قبيلة.

٣ — لقد خاض الكاتب الفاضل في هذه البحوث خوض العارف المستقرى المتتبع الجامع لاشتات المسائل في كليات عامة من غير أن يتيه في جزئيات لا حدود لها!

وقد جمع في دراسته بين الأصول الدينية للنظريات المختلفة والأدوار التاريخية التي مرت بها وتلقى نفوس الأجناس المختلفة القبائل والشعوب لها، وانحرفاها في نفوس طائفة واستقامتها في نفوس آخرين.

وهو في كل ذلك قد استولى على موضوعه تفكيراً وتعبيراً، ودقة وعمقا وإحكام عرض، وحسن تأت لدقائق المسائل، ومختلف الأقوال.

٤ — هذه إشارات لائحة لهذا السفر القيم؛ وقبل أن أدع القلم لا بد من الإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن الكاتب لم يبين سياسة الإسلام مع غيره من الدول وهي سياسة تصدى القرآن الكريم لبيانها وتصدى النبي صلى الله عليه وسلم لشرحها بقوله وعمله ومعهاداته وحروبه؛ وهي أدخل في باب السياسة؛ وهي أنسب لوصف الكتاب، وبيانها عرض للمثل العليا في عصر تسود العلاقات بين الدول فيه حكم الغابة الذي أساسه اقتراس القوى للضعيف؛ ويحكم فيه الظفر والناب.

ثانيها: أن النظر التاريخي وتتبع الأدوار جعله يسير في حكمه وراء النظريات التي قررها العلماء واختلفوا حولها، وكنا نود أن يعنى عناية كاملة في فصل أو فصول

بالحكم الإسلامي الصحيح المستنبط من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح الذي يجب العمل به الآن .

ثالثها : أن هذا الكتاب جاء في إبانته ، فنحن الآن نضع الأسس لنظام الحكم في مصر ذؤابة الدول الإسلامية ، ومن حق الأمة أن يربط حاضرها بماضيها ، ويعرف فكر السابقين فيما يفكر فيه الحاضرون .

هـ - وأخيراً إن هذا كتاب قيم ، لا يمنعنا تقديمه من الاعتراف بفضلته ؛ وقد عرفنا كاتبه منذ صباه ، عرفناه في باكورة الشباب شاباً نابغاً أليماً مجداً مثابراً متقدماً صفوف إخوانه ، وعرفناه وقد بلغ أشده واستوى على كرسي الدرس أستاذاً جامعياً محققاً ، مثبّتاً ، متعمقاً ، يغوص في طلب الحقائق غوص العارف بمواصفها المدرك لغاياتها ، وفقه الله وأثابه ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل .

محمد أبو زهرة



الأعداد الأولى

أعيد طبع الأعداد الثلاثة الأولى ، من السنة الأولى ، وتأخر إرسالها — كما وعدنا — للذين ضاعت أعدادهم في البريد ونحن نعتذر عن ذلك لسبب يتصل بتنظيم أعمال التوزيع . وسترسل إليهم في ذي القعدة إن شاء الله .
أما الرابع والخامس — فسيعاد طبعهما قبل ذلك وسيرسالن إلى حضرات المشتركين فور صدورهما .
« الإدارة »

صُومُوا تَصِحُّوا

للأمير الالاي الدكتور أحمد الناقه

عرف قدماء المصريين الصوم عن بعض الأطعمة في بعض الأيام حرصاً على الصحة وحفظاً لأنواع الحيوان والطيور والأسماك حين تناسلها وحين تفرخها وتكاثرها .

وكانوا ينظفون أجوافهم بالمسهلات في كل شهر حتى تسلم أبدانهم من شر الامتلاء .

ويصوم اليهود والنصارى عن الحيوان وما يخرج منه في أيام معلومات ، لا يذوقون فيها لحماً ولا بيضاً ولا لبناً ، ولكنهم يأكلون الأغذية النباتية .

وفي الإسلام فرض الصوم لا عن بعض الطعام دون البعض ، ولكن عن كل الطعام ، ولا عن الطعام دون الشراب ، ولكن عن الطعام والشراب جميعاً ، وهذا أبلغ في صحة البدن ورياضة النفس على الصبر وذكر الفقر :

« يأبى الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، والصوم فرض في رمضان ، وسنة في غير رمضان ، وحرام في أيام العيد ، ويكون بالامتناع عن الأكل والشرب وجميع المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس . ويجب أداؤه على المسلم البالغ المقيم صحيح الجسم والعقل ، غير الحائض والنفساء . ويفسده وصول شيء من الغذاء والدواء إلى الجوف .

فرض الصوم لحكمة بالغة تكفل صحة البدن ويقظة الذهن وراحة النفس : أما صحة البدن فتكون بالتخلص من الفضلات المتجمعة ، والأخلاط المتركة . وأما يقظة الذهن فباجتناب كثافة الطعام التي تصرف الدم عن المخ إلى البطن . وأما راحة النفس فبالفراغ للطاعات ، وفعل الخيرات ، والتعاون على البر والتقوى . وإذا اجتمع للمرء صحة في بدنه ، وجلاء في ذهنه ، وصفاء في نفسه ، استشعر في نعمة الصوم شبع الإيمان ورى اليقين .

ولكن كثيراً من الناس نسوا الله فأنساهم حكمته ؛ فكان صيامهم تخمة آخر الليل وجوعاً وعطشاً آخر النهار . يرقبون الشمس فإذا غربت جلسوا إلى الطعام والشراب ، فملأوا البطون حتى البلعوم ، ثم سهروا وسمزوا وهم لا يكفون عن أكل «النقل» والحلوى وشرب المرطبات والمثلجات . فإذا فرغوا من ذلك لامسوا النساء على امتلاء ، ثم قاموا إلى السحور فأفراطوا في الطعام والشراب خوف الجوع والعطش

طول النهار ثم ناموا ، فإذا صحوا ضحى قاموا كسالى ، وإذا خرجوا إلى أعمالهم بدا عليهم الجهد والضعف وسوء الحلق فاعتذروا من كل ذلك بالجوع والعطش والله يعلم أنهم لمتخومون ، وأن هذا العناء الذى يلاقون ، إنما مرده إلى عسر الهضم وإجهاد الكبد ودورة الدم وسائر الأعضاء ؛ ولو أنهم تصدقوا ببعض هذا الطعام لربحوا الصحة والعافية وحسن ثواب الآخرة .

ويطرد هذا النهم ثلاثين ليلة فتضعف الأجسام وتخور القوى وتفور العمل السافرة وتظهر الكآمة كسوء الهضم ومرض الكبد ، والصفراء والحمول والضعف ، وضعف الأعصاب والبدانة وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين وضعف القلب وداء السكر والنقرس . فإذا انقضى رمضان فرحوا واستبشروا والتمسوا الطب لأنفسهم من شر الصوم وذلك ظن باطل . وهؤلاء لا يجهلون حكمة الصوم فحسب ، بل إنهم ليجهلون عناصر الغذاء كذلك ، ولا يعلمون أن كثرة الغذاء وقلته وسوء اختياره كلاهما كفيلة بأن تجلب الأذى ، فالغنى يصاب بأمراض الامتلاء التى قدمنا ، والفقير بأمراض نقص التغذية وهذه يشفيها الغذاء وحده حين لا ينفع فى أكثر أمراض الامتلاء غذاء ولا دواء ، وذلك شر الجزاء لمن أفرط فى الغذاء .

ومن فضل الله ورحمته بالفقراء أن خلق لهم من الغذاء فى اللبن والجبن والبيض والبقول والعدس والخضر والتمر والحبز والبقول والحبوب وغيرها ما ينفى عن الشحم واللحم والطيور وسواها من الأطعمة الغالية الثمن . ومن رحمته كذلك أن جعل الخير فى الرغيف الأسمر الذى يحوى النخالة والشر فى الرغيف الأبيض والفطير . وجعل البركة كذلك فى التمر والفاكهة والندامة فى الحلوى الدسمة « إن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولعل أكثر أمراض سوء التغذية ناشئة من شر البلايا : الفقر ، والجهل ، والمرض . أما الفقر فيعوق حتى الكفاف المستمر بسبب ضيق ذات اليد أو قلة الغذاء المحلى وعدم تعريزه من الخارج لقلة المال أو صعوبة المواصلات أو كليهما ، وبخاصة فى البلاد النائية المنعزلة حيث لاتتمو الخضر والفاكهة ، أو حيث تستخدم الآلات بدل الماشية لفلاحة الأرض فتقل الأغذية الحيوانية . وأما الجهل بالقيمة الغذائية لشق الأطعمة فهو فاش فى الناس أجمعين ، غنيهم وفقيرهم ، فالغنى يسوء اختيار طعامه ويحسب أن أحسن الأغذية أغلاها ثمناً فيكثر من اللحم والشحم والسمن والدسم والفطير والحلوى وسواها مما لده وطاب فيصاب بالبدانة وعلل الامتلاء ، وأكثرها يستعصى

على الدواء . وأما الفقير الذى لا يجد ما ينفق فليس له أن يختار إلا بين الحبز القفار وبعض الحيار ، وهذه ومحوها لا تقيم الأود ، ولا تسد الرمق ، لنقص عناصرها المغذية التى تقى الجسم شر الضعف والخور . وأما المرض فإنه يعجز الناس عن الإنقاذ إذا عملوا فيقل رزقهم ، وقد يعجزهم كذلك عن هضم الطعام والاستفادة به إذا وجدوا ما يأكلون .

وإذن فلا بد من علاج للفقير بالعمل والتصنيع ، وللجهل بالتعليم العام ، وللمرض بالإرشاد الصحى والدواء . والإشراف على غذاء الناس من أخص شئون الهيئات الصحية التى يجب أن تشير على الدولة بما يزرع أو يستورد أو يصدر من شتى الأغذية ، وكذلك يجب أن تشير بمقدار أجر العامل حتى يجد هو وأهله الكفاف على الأقل ، وفى ذلك خير للعامل وصاحب العمل والأمة جميعا . ولا يصح أن ننسى أن الغذاء الجيد يزيد الإنتاج لأنه يحفظ الصحة ويوفر نفقة العلاج .

وعزتنا أن نرى كثيراً من الفقراء الضعفاء المرضى بسوء التغذية ينفقون قليل مالمهم على التدخين والشاى وتلك المشروبات المستحدثة « كالكوكولا والبيسى كولا » ونحوها ، ولو أنهم أكلوا بشئنا من اللبن أو البيض أو الفول ، أو العدس أو « الطعمية » أو الحضر أو الفاكهة لكان أشفى لهم وأصح وأبقى .

والجسم يستخدم الغذاء إما بناء لأنسجته وأعضائه ، وإما وقوداً للحركة والحياة . فأما أغذية البناء فأهمها الزلالية كاللحم والفول والبيض واللبن والجبن والطيور والسمك وأما أغذية الوقود فأهمها النشوية والدهنية كالحبوب والذريات والسكريات والبقول والحضر والفاكهة والكالزيت والسمن والزبد . وقد أودع الله أكثر الأغذية الطبيعية « حيوات (فيتامينات) وأملاحا » تعين على البناء واحتراق الوقود فى البدن وتكثر فى الحضر والفاكهة واللبن والبيض والكبد واللحم والتمر ، وأحسن الطعام ما شمل شيئاً من كل ذلك . وقد يقوى العصب والشباب على جميع الأغذية . أما الشيخوخة والمهرم فلا تحتمل غير السهلة البسيطة مثل الحضر والفاكهة واللبن واللحم الطرى .

وفضل الصوم كبير على البدن والعقل والروح جميعا ؛ وذلك أن المعدة تهضم الغذاء ثم ينحدر منها إلى الأمعاء فتتمصه ، ثم إلى الكبد فيتم إنضاجه قبل أن تنتفع به سائر الأعضاء ، وقد يتخلف منه فضلات تعجز عنها قوى الهضم والإنضاج ؛ إما لكثرة الغذاء ، أو لرداءته ، أو لسوء اختياره ، أو لسوء إعدادة ، أو لكل ذلك . وهذه الفضلات تتراكم على مر الأيام فتصيب البدن بالمرض « المعدة بيت الداء » . « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

والصوم الحسن كفيل بالخلاص من هذه الفضلات والأخلاط الضارة ؛ فهو
للسليم فرط الصحة ، وللمريض عين الشفاء ، ولا يكون الصوم حسناً إلا بالحمية من
الطعام الغليظ المركب الدسم ، والإقبال على الخفيف البسيط النضيج . « والحمية رأس
الدواء » من علل شتى أخصها أمراض الامتلاء « حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه » .

ويدعى أطباء اليوم أنهم استحدثوا العلاج بالحمية ؛ وهو قديم في الصوم ، وقد
صدقهم الناس حين نسوا حكمة الصوم فسأت صحتهم ، فالتمسوا لها الطب بالحمية .

وفي رمضان يتسع مجال التأمل في حال المسلمين وإصلاح شأنهم في أمور معاشهم
ومعادهم وإحكام الصلة فيما بينهم : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .
والنفس تأنس بذكر الله والصلاة ، وتطهر بالصدقة والزكاة : « قد أفلح من
زكاها » ، وتقوى الصلة الروحية بالملا الأعلى ، وهذه أسمى درجات السعادة
في العبادة .

وقد لا يقوى على الصوم الصبية في سن النمو ، والحوامل والمرضع والمرضى
والضعفاء والكهول وذوو المزاج العصبي والضعف النفسي والعقلي إذا هم اشتغلوا بعمل
شاق في حر الصيف ، وخاصة حين تتعلق بأعمالهم مصالح الناس ومعاشهم : « فمن كان
منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

ومن الناس من يعيش على أكلة واحدة في اليوم ، ومنهم من يعيش على
أكلتين ، فإذا صاموا فإنما تتغير أوقات طعامهم فحسب . أما مقدار ما يدخل جوفهم
من الغذاء فلا يقل ، بل ربما زاد كثيراً عند الذين يخشون الجوع والعطش . والقوم
في أمريكا يعملون طول النهار ، ويعيشون على أكلتين : الفطور والعشاء ، ولا يتناولون
فيما بين ذلك إلا القهوة أو شيئاً خفيفاً عند الظهر لا يعرضهم للخمول وقت العمل .
والذين يشق عليهم الصوم يستطيعون بعد نصف شعبان أن يباكروا الفطور والعشاء
حتى يقربوا تدريجياً من الفجر والمغرب ، وأن يقلوا من الطعام والشراب فيما بينهما
فإذا جاء رمضان لم يرهقهم الصوم . وقد لا يبالي الصائم بالجوع ولكنه يكابد العطش
ولعل أشد الناس شعوراً بالجوع والعطش هم الذين يزحمون بطونهم في السحور
بالطعام والشراب .

وهذه بعض النصائح التي قد تفيد الصائم : —

١ — أصلح بالصوم ما أفسد النهم والدسم من أمر صحتك إن كنت غنيا :

« جوعوا تصحوا » .

٢ -- أعن أخاك الفقير على أن يصلح ما أفسد الجوع والحرمان من صحته :
« كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » .

٣ -- اجعل من رمضان شهر الحرمان للنفى وشهى الطعام للفقير .
٣ -- لاتهجم على الطعام والشراب بل تمهل ولا تثقل على المعدة فجأة .
٥ -- اجتنب الطعام الدسم كثير السكر والملح في السحور . إن شئت ألا تحس الجوع والعطش .

٦ -- من لم يجد ما يأكله فليستعن باللبن فهو طعام وشراب .
٧ -- عجل بالفطور وآخر السحور ما استطعت .
٨ -- السهر والسمر يعين على هضم الفطور .
٩ -- فيما بين الفطور والسحور لاتكثر من « النقل » والسوائل الثلجة فتعطل عمل القوة الهاضمة .

١٠ -- اشتغل نهارك بما يجدى ولا يجهد تنس الجوع والعطش .
١١ -- لاتقرب النساء على امتلاء حتى يتم هضم الفطور .
١٢ -- تمسك بما اعتدت في رمضان من الاعتدال والهدوء والإيثار .
١٣ -- اعتصم من صروف الدهر بالصوم واجعله ملاذك كلما ضاقت بك الدنيا .
١٤ -- دع المغموم فهو مغموم يفسد الصحة ولا ينفع معها غذاء ولا دواء .
١٥ -- من حسنات رمضان أنه يشيع في المسلمين روح المرح والقناعة والتوكل وهذه تشرح الصدر وتريح النفس وفيها شفاء للناس .

فإذا خرج المسلمون من رمضان سليمة أبدانهم ، طيبة نفوسهم ، بما اعتادوا من الكف عن كثير الطعام وفضول الكلام ، ومن بذل الصدقات وصلة الأرحام . فمن الخير ألا يعودوا إلى ما كانوا فيه من تفاخر بالأموال والأولاد ، وتعاون على الإثم والعدوان ؛ فما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور .

وعلى قدر حظ الصائم من الإيمان يكون فرحه واستبشاره بـرمضان ، ومن قوى إيمانه ودّه لو كان الدهر كله رمضان حتى يقضى العمر في العمل الصالح والصلاة والزكاة والتأمل في أسرار الكون وجلال الخالق « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »
« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

إِنَّ لِبَازِئِكَ عَلَيْنَا حَقًّا

بإشراف الأمير لاي الدكتور أحمد الناقه

- س ١ : ما سبب الموت المفاجئ الذي كثر حدوثه ؟
ج : إنسداد شرايين القلب بسبب تصلبها من نكد الدنيا .
- س ٢ : هل يمنع داء السكر وضعف القلب من الزواج ؟
ج : لا يمنع من الزواج أحدهما أو كلاهما وخاصة إذا كان المرض خفيفا ؛ أما إذا شديدا يستعصى على العلاج فقد يمنع .
- س ٣ : يحب السبانخ والملوخية والرجلة ويسأل أيها أكثر فائدة ؟
ج : كلها غذاء جيد غني بالفيتامين والأملاح النافعة ، فالسبانخ تحوى فيتامينات أ و ج وأملاح الحديد ، والملوخية غنية بفيتامين ب ، والرجلة بفيتامين ج .
- س ٤ : فلاح يشكو ضعفاً والماء شديداً في « قم المعدة » ؟ فهل هو مصاب بقرحة المعدة ؟
ج : قد يكون المرض : بلهارسيا ، أو إنكلستوما ، أو التهاب كيس الصفراء ، أو نحوها ؛ فاستشر الطبيب فإن لم يجد شيئا من ذلك ففكر في القرحة .
- س ٥ : التهاب منابت الشعر أكثر من سنة ولم يصلح فيه دواء ؟
ج : جرب مرهم تيراميسين ١٪ .
- س ٦ : فتاة مضطربة الحيض هل ينتظر أن تكون عقيما إذا تزوجت ؟
ج : لا ينتظر أن تكون عقيما إذا أظهر الفحص الطبي أن أعضاءها سليمة .
- س ٧ : تاجر يسأل عن السبب في أن رجال الصحة يصرون على إعدام علب الأغذية المحفوظة إذا انتفخت ، مع أنه أكل إحداها فلم يصب بسوء ؟
ج : انتفاخ العلب ناتج من غازات تكونت بفعل أحماض الطعام على الجدران المعدنية للعلب ، أو بفعل جراثيم ضارة لوثت الطعام ، والتفريق بين الاثنين صعب فلزمت الحيلة ، ولعلك لم تصب بسوء لأن انتفاخ علبتك كان بفعل الأحماض .
- س ٨ : جد هرم مصاب بسلس البول في الفراش . ما السبب وما العلاج ؟
ج : قد يكون سلس البول من التهاب مجرى البول والثانة أو تضخم البروستاتة أو ضعف الأعصاب ، ولكل منها علاجها حسب مشورة الطبيب .

مع العشارفين

الإمام المتحن : أحمد بن حنبل

بين فتنة الجاه وفتنة المال

(٣)

كانت الدار التي نزل بها أحمد في « سامرا » تستقبل كل يوم عديداً من رجال الدولة وغيرهم ، يفدون عليها لزيارته والاطمئنان على حاله ... وكان ولداه عيد الله وصالح يقومان عنه باستقبالهم وتحيتهم ، أما هو فكان لا يخرج إليهم من حجرته وصلاته إلا قليلاً ... فأنحدر صالح إلى بغداد يوماً لبعض شأنه ، فأمر عبد الله أن يلحق به ، وقال له : الزما بغداد ، ولا يخرج أحد منكم إلى « فإنما أنتم آفتى ... والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أخرجت منكم واحداً معي ... لولا مكانكم مني لمن كانت توضع هذه الفرش ؟ ولمن كانت توضع هذه المائدة ؟ »

وخلت الدار على أحمد بعد سفر ولديه ، وشملها سكون ووحشة ، وطويت الفرش على ما صدق ظنه ، وانقطع مجيء المائدة ، وقل الوارد من الزوار ؛ وأمعن الشيخ في خلوته ، وصيامه وعبادته ؛ وأمعن فيه الضعف والهزال ، وساءت صحته ... ولم يعد للقوم مأرب من مقامه بينهم على هذه الحال ... وهو ما كان يريد ... سأل عنه الخليفة يوماً ف قيل له : إنه عليل .. فقال : « قد كنت أحب أن يكون في قربي .. وقد أذنت له »

وجاءه البشير بذلك في جوف الليل : قد أذن لك الخليفة .. وهذه ألف دينار لنفقتك ، ونحن بسبيل تهية حراقة لك تنحدر بها في دجلة إلى بغداد .

وانقضت بذلك محنة أحمد بسر من رأى ، وانكشف عنه ما كان يجد من الكرب والفتنة ؛ وقال للرسول : أما المال ، فلا حاجة لي به ، « وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره » . وأما الحراقة فيغني عنها دابة من دواب البريد ، وهي أرفق بي وأيسر ...

كانت محنة الجور من السلطان أرفق بأحمد من محنة إقباله عليه بالجاه والعطاء والمال .

كان يريد أن يسلم له دينه وبقينه ، أو يسلم له قلبه ووجدانه ؛ ولا آفة للإيمان إلا أحب الدنيا ، ولا آفة للقلب إلا الركون إلى زينتها ... فإذا فسد الإيمان ، وهلك القلب ، فأى شيء يكون المرء عند الله جل ثناؤه ؟ ...

وقد يعظ الناس بعضهم بعضاً بهذا الكلام ، فيكون وعظهم من قبيل التقرير لأمر نظرية ، ويكون تقبلهم له من قبيل الارتياح إلى الكلام الحسن الذى لا يكلفهم قليلاً ولا كثيراً من مشقة الصبر أو خشونة المجاهدة ... أما أحمد رضى الله عنه فقد أبصر تلك الحقائق رأى اليقين والبصيرة ، فشعر لها على حذر ، وتجرد لها على خشية من الله ، ورغبة صادقة في السلامة والأمن ...

لقد نشأ له في خفايا نفسه عيان لا كاليون ، تبصران له ما في عالم المعاني من الحقائق والقيم ... فكان يمسى ويصبح ، وينعدو ويروح ومعالم هذا الأفق الحقيقى ساطعة في نفسه . شاخصة لوجدانه ، فهى بالنسبة له أمر واقع ؛ وشيء حاضر قائم لا سبيل إلى تجاهله أو الانصراف عن خطورة شأنه ... فتلك الدنيا المقبلة عليه بجاهها ومالها وكل زينتها ، لا يراها كما يراها سائر الناس ... إن حلاوتها في القلب هى سمه الزعاف القاتل ... وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم في رأى الناس إن هى إلا لإعصار المحرق الذى يأتى على ما أنشأ الإيمان في رباب النفوس .

كان أحمد يرى كل ذلك رأى اليقين والبصيرة .. فهل يرفع الكأس إلى شفّيته وهو يعلم أنه السم الزعاف ؟ ... وهل يستقبل الإعصار فى طمأنينة ، وهو يرى السنة الحريق واللهب تمتد إليه لتطويه فى ثناياها ؟

ذلك هو وجدان أحمد ، وتلك هى حقيقته التى كان يعيش فيها بين الناس ... يرى ملايرون ، ويدرك ما لا يدركون .

وكان شديد الحرص ، أن يحجب أبناءه ما يحجب نفسه من آفة الدنيا ، وأن يحميم بما حمى نفسه منه ، وفيه خيرهم الحق ، ونجاتهم من كل شر ، واسكن هل يبلغ صوته آذانهم ، وهل يعون عنه سمو الهدف الذى يريد ؟

لقد عاد إلى بغداد ، واستقر بين بنيه وأهله ، فأقبل على ابنه صالح يقول له : يا بنى « أحب أن ندع هذا الرزق الذى نأخذ من الخليفة ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسبى » ..

قال صالح : فسكت .

قال أحمد : مالك لا ترد ؟

قال صالح : أكره أن أعطيك شيئاً بلساني ، وأخالف إلى غيره وقد كنت أشكو إليك فاقني وكثرة عيالي ؛ وكنت تدعوني ؛ فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك .

قال : ولا تفعل ما أقول لك ؟

قال صالح : لا . . .

فغضب أحمد ، وطرده من مجلسه ، وأقام جداراً يسد ما بينه وبين بيته .
قال صالح : وكان إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً أغتم وطوى ليلته فلم يفطر . . . وظلمت أشهراً لا أدخل عليه فوجهت إليه : يا أبت قد طال هذا الأمر على ، وقد اشتقت إليك . . فسكت . . . قال فدخلت إليه وأكبت عليه ، وقلت له : يا أبت تدخل على نفسك هذا النعم ؟ فقال يا بني ، يا تبنى مالا أملكه وتكلم عبد الله بن محمد المعروف ببوران ، وقال : يا أبا عبد الله ، صالح يرضيك الله . . .

فقال : يا أبا محمد ، والله لقد كان أعز الخلق على وأنى شيء أردت له ؟ . . . ما أردت له إلا ما أردت لنفسى !

فقال صالح : يا أبت ، ومن من خلق الله الذين رأيتهم أو لقيتهم يقوى على ما قويت أنت عليه ؟

فغضب أحمد وقال : ونحتاج على ؟

وانقطع الراتب شهوراً عشرة ، عن كل شهر أربعة آلاف ، وارتاح أحمد بعض الشيء . . . ولكن الخليفة يعلم بذلك فيأمر بالأربعين ألفاً أن تحمل للفور إلى ولد أحمد فلما جاءت أرسل إليه صالح ينبئه ، فسكت قليلاً . . . وجعل يضرب بذقنه ساعة . . . ثم رفع رأسه ، وقال : « ما حيلقي إذا أردت أمراً ، وأراد الله أمراً ؟ » .

وقدم للتوكل فنزل بظاهر بغداد في طريقه إلى المدائن ، فهل خف أحمد إلى لقائه وتحيته مع من خف من الأعيان والكبار والشيوخ ؟

لقد عرفنا مذهبه . . فهو يريد أن لا يرى أحداً من أرباب الجاه والسلطان ؛ وأن لا يراه أحد منهم . . .

لم يخف إلى لقاء الخليفة . . بل لم يحدث نفسه به . . . بل ذهب إلى ما هو أكثر من ذلك . . . قال لابنه صالح : يا بني ، لا تذهب اليوم ، حتى لا يراك أحد منهم فيذكرني بك

ولكن الخليفة ينظر في وجوه الأعيان ، فيرى كل وجه لا يريد . . . ولا يرى الوجه الذي يحب أن يراه !

وكان صالح جالساً بظاهر الدار على باب الزقاق ، في اليوم التالي ، وكان يوم مطر . . . قال : وإذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر عليه في موكب عظيم ، فلما رآني قال : سبحان الله ! لم تصل إلينا حتى تباع أمير المؤمنين السلام عن شيخك حتى وجه بي إليه . . .

ونزل خارج الزقاق . وجهه عليه صالح أن يدخل على الدابة ، فلم يفعل ، وجعل يخوض المطر . . . ودخل على أحمد وهو قاعد في زاوية من البيت عليه كساء مربع . . . فسلم عليه ، وقبل جبهته ، وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ؟ . . . ويقول : كيف أنت في نفسك ، وكيف حالك ؟ ويسألك أن تدعوه له . . .

قال أحمد : ما يأتي على يوم إلا وأنا أدعو الله له . . .

قال يحيى : وقد وجه معي ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة . . .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، أنا في البيت منقطع من الناس ، وقد أعفاني من كل ما أكرهه !

قال يحيى : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا ! !

قال أحمد : يا أبا زكريا ، تلتطف في ذلك . . . ودعاه . . .

تلك هي عزة الدين . . . وذلك هو الملك الحق !

أشرف أحمد على النهاية ، وأشرف معها على الغاية ؛ وأخذت أيامه الأخيرة تدنو به رويداً رويداً إلى باب الخلود .

أطال الصوم . . . وأدام الصلاة ، لا يصل إلا قائماً ، يمسكه ولده إذا قام ، ويسنده إذا ركع أو سجد . . . واجتمعت عليه أوجاع الحصر . . .

قال ابنه صالح أما عقله فلم يزل ثابتاً صافياً .

وذاع في بغداد أن صديق العصر يوشك أن ينتقل إلى جوار الله .

وفزع الناس : يهودهم ، ومجوسهم ، ومسلمهم ، ونصرانيهم ، فقد كان أحمد ملكاً للإنسانية بأسرها ، ورحمة لكافة من أظله لواء الإسلام أو ذمته . . .

وأرهفت الأسماع ووجفت القلوب ؛ حتى إذا مضت ساعتان من يوم الجمعة

الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين نعاها الناعي !

ووقف دولاب الحياة في بغداد بأسرها عن كل حركة ، وفرغت المدينة العظيمة
ليوم إمامها الجليل . والكل ما بين حزين مكتئب ؛ وبالك منتحب . . . حتى أسدلوا
عليه ستار التراب في جدته المنور . . .

ونظر رجال الملك من زاويتهم بقدرهم منها موت أحمد .

ونظر رجال الاجتماع .

ونظر رجال الحقيقة .

أما رجال الملك ، فقد بعث الخليفة عشرين حازراً يحزرون له عدد من يصلى على
أحمد من الناس صلاة الجنازة ، فقد كان له فيهم ملك وسلطان من وراء ملك الخليفة
وسلطانه . فعاد الحازرون يذكرون له مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة ، عدا الدين لم
يتمكنوا من الصلاة !!

أما رجال الاجتماع فقد لحصوا أثره بقول الدركاني : وقع المآثم والنوح يوم مات
أحمد بن حنبل في أربعة أصناف من الناس : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ؛
أما أهل الحقيقة ، فيقفون طويلاً على ما كان منه في لحظاته الأخيرة ، وقد جاءت
سكرة الموت بالحق ، وكشف عنه غطاؤه ، ف يرى بعيني بصره وبصيرته ما كان مستوراً
عنه من الحقائق . . . ويرى إبليس وقد وقف في ركن من الحجره بعض على أنامله
من الغيظ . . . ويسمعه يقول : لقد أجهدتني يا أحمد أكثر من ستين عاماً ، وها أنت
ذا تفلت مني اليوم ، وتفوتني دون أن أنال منك ! فيقول له أحمد : لا . . . إني لم أفتك
بعد ، ولم أفلت منك ؛ فما يزال في الصدر أنفاس تتردد ، وما يزال في البدن خفقة من
حياة ، وما يزال لكيدك فيها متسع !

قال ابنه عبد الله فقلت : يا أبت إيش هذا الذي قد لهجت به ؟ فقال لي : يا بني ،

هل تدري ؟

فقلت : لا .

فقال إبليس لعنه الله ، قام بجذائي ، عاضاً على أنامله ، يقول : يا أحمد فتني !

فقلت له : لا بعد ، حتى أموت !

وتعاقبت الأنفاس التي تتردد في صدره تخرج واحداً في إثر الآخر حتى لفظ

آخرها . . . وانطفأت خفقة الحياة التي كانت باقية في بدنه .

وأطبق فيه !

وأغمض عينيه إلى الأبد !

مدالائسلام وعجزه

للشاعر الأوردي الأستاذ الطاف حسين حالي

ترجمها إلى العربية بشيء من التصرف القاضي محمد محمود الزبيري

شاعر اليمن

(٢)

هو الشعب لاه ليس يترك لهوه قناعته بالدون تنسيه شأوه
كفى أنه ما زال يحلم حلمه ويشدو بأنغام السيادة شدوه
تمرغ في الأوحال عجزاً وذلة وما زال غيراً لا يفارق زهوه
تجلى عليه الصبح لكن ظلمة الـ سبات نراها لا تفادر جوه
فما شال رجلاً كي يمارس خطوه ولا هز جفناً كي يجرب صحوه
قنوع فلا تأسى على الذل نفسه صبور فلا يشجى من الخسف شجوه
يعذبه الباغي ويقصم ظهره فيحبوه دنياه ويعطيه عفوه
نطورت الدنيا وطارت بأهلها وما انفك يحبو أو يمجّد حبوه

يقدم للسكين كالكبش نحره وبصبر للتقطيع والسلخ صبره
ويحيا كما تحيا البهائم عمره ويحمد دنياه وبشكر دهره
ويرضى إذا ما استعمر البغي قطره ولو سامه خسفاً وألمب ظهره
فكل هوان ليس يوقد جمره وكل فخار ليس يوقظ كبره
وما رغبة الجنات تشرح صدره ولا رهبة النيران تجلب ذعره

أساء إلى الإسلام مذحل اسمه وعطل معناه وأبطل فهمه
وشوّ منه وهو بظهر حبه بما لم يشوه منه لو كان خصمه

تظاهر في أثوابه ولو انه
فما ترك الأتواب بيضاً ولا زوى
يحاول تضليلاً فيفضح نفسه
يرأى نفاقاً وهو يدري بأنه
فياليت شعري من يغالط في الوري
بدا عارياً ما كان يأثم إثمه
معايبه السوءى ولا زان جسمه
وينسج أثواباً فيكشف جرمه
كذوب وأن الناس تضر شتمه
ومن ذا يراعى حين يزعم زعمه

ومن عجب كيف استطاع إساءة
وشكك فيه الناس إذ كان ظلّه
معاذك يارباه ! فالبون شاسع
لو انتسبت شمس النهار بهديها
ولا أحسنت في أن تسد مسده
وليست بأهل أن تكون سلالة
فنور الضحى يستهدف الأرض وحدها
إلى سمعة الإسلام واجتث فضله
على زعمهم والظل يشبه أصله
ودينك ما في الأرض أمثله له
إلى هديه القدسى لم تك مثله
ولا نجحت في أن تحمل محله
لتاريخه أو أن تمثل أهله
وروح الهدى يستهدف الكون كله

ذكاء تربي الشر والخير في الوري
به صارت الأعداء من قبل إخوة
وتحيا نشاوى في فراديس وحيه
تسود به فوق الحياة وأهلها
تطول عمر الشعب حتى كأنما
غذت روحه سحراً فغادر مهده
أحالت تراب الأرض تبراً وصيرت
ودين السماء يصنع الخير وحده
تهم بعلياه وتمشق بحجده
تعلى حمياه وتنهل شهده
وتنشر رياه وتكتب عهدده
تذود مناياه وتغلق لحده
بساعاته الأولى وأدرك رشدده
به كل فرد عنه يضر زهدده

شاطيء التوبة

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَمَا شَاطِئُ فِي يَدَيْهِ كَفَّارَةٌ لِأَخْطَايَا
ذَهَبْتُ يَوْمًا إِلَيْهِ بِأَدْمُعِي وَشَقَايَا
وَبِالْمَعَاصِي اللَّائِي دَفَنْتَهَا فِي حَشَايَا
وَرُخْتُ أُلْقِي عَلَيْهَا تَبَتُّلِي وَهُدَايَا
فَصِرْتُ قَبْرًا قَدِيمًا تَنَاهَشَتْهُ الْمَنَايَا
زَقُوا عَلَيْهِ غُصُونًا مُنْضَرَاتٍ صَبَايَا
وَحَمَلُوهُ طُيُورًا حَمَلَتْهَا مِنْ غِنَايَا
وَصِرْتُ بَعْضَ صَلَاةٍ تَضُمُّ بَعْضَ الْخَطَايَا
وَتَوْبَةً فِي خُطَايَا تَمْشِي الذُّنُوبُ عَرَايَا
كَأَنَّهَا مِنْ خَفَاءٍ لِلإِثْمِ صَارَتْ مَطَايَا
أَوْ أَنَّهَا مِنْ رِيَاءٍ أَضْحَتْ لَدَيْهِ مَرَايَا . .
ذَهَبْتُ يَوْمًا . . وَنَفْسِي جَرِيحَةً ، تَتَعَايَا
وَالْمَعَاصِي عُوَاةً مُدْمِنَةً فِي الْخَنَايَا
كَأَنَّهُ صَوْتُ ذَنْبٍ تَغَافَلَتْهُ الْعَشَايَا
أَوْ فَحْ أَفْعَى شَوْشَا مِنْ الْمَهْجِرِ شَطَايَا
أَوْ نَوْحٌ تَكَلَّى أَهَاجَتْ لَهَا الْقُبُورُ خَفَايَا . .
أَوْ وَخْزَةٌ مِنْ تَضْمِيرٍ لِلْعَارِ فِيهِ بَقَايَا

أَوْ صَرْخَةً مِنْ يَتِيمٍ تَلَقَّفَتْهُ الرَّايا . .
حَمَلْتُهَا . . وَكَأَنِّي حَمَلْتُ هَوْلَ الْمَنَايا
وَجِئْتُ نَدْمَانَ أَزْجِي إِلَى الْمَتَابِ خُطَايا
أَبْكِي ، وَتَبْكِي ، وَيَبْكِي دَمْعِي ، . . وَيَبْكِي بُكَايَا
وَفِي يَدَيَّ غَمَاءٌ مُوَلُّوْلٌ مِنْ أَسَايا
وَبِي دُعَاءٌ خَفِيٌّ مُزْمِرٌ فِي دُجَايا
كَأَنَّهُ صَوْتُ رُؤْيَا سَجِينَةٍ فِي الْخُفَايا
أَوْ حُزْنُ طَيْرٍ غَرِيبٍ فِي اللَّيْلِ يَنْفُخُ نَايا
أَوْ مُسْتَجِيرٍ ، تُلَجِّي صَدَاهُ ، نَفْسُ الرَّايا . .
يَقُولُ : يَا رَبِّ ! هَذَا إِنَّمَا ! وَهَذَا تُقَايا !
وَذَاكَ دَرْبٍ ، وَهَذِي عَلَى الطَّرِيقِ عَصَايا
مَا كُنْتُ أَعْمَى ! وَلَكِنْ أَعْمَى الْمَغْنَى شَجَايا
دَقَّ الدَّفُوفَ ، فَطَارَتْ أَرْضِي لَهُ وَسَمَايا
وَطَرْتُ عَبْدًا . . أُنَادِي فِي سَخَرِهِ مُنْتَهَايا . .
رَبَّاهُ إِنِّي غَرِيبٌ مُضَيِّعٌ فِي حِمَايا
لَمْ أُدْرِ يَا سَيِّ فِيهِ وَلَا عَرَفْتُ رَجَايا
وَلَا عَرَفْتُ ذُنُوبِي وَلَا عَرَفْتُ هُدَايا
وَلَا عَرَفْتُ ظِلَامِي وَلَا عَرَفْتُ ضُحَايا
إِلَيْكَ أَنْتَ . . صَبَاحِي مُصَفَّدٌ وَمَسَايا
عَبْدَانِ فِي الذُّلِّ تَاهَا وَتَهْتَهَا بِالْخُطَايا
فَأَسْكُبُ ضِيَاءَكَ إِنِّي ظَمآنٌ . . ضَلَّ صَدَايا
لَمْ يَذَرِ مِنْ أَيْ نَبْعٍ يَسْقِي حَنِينِ الرَّكَايا

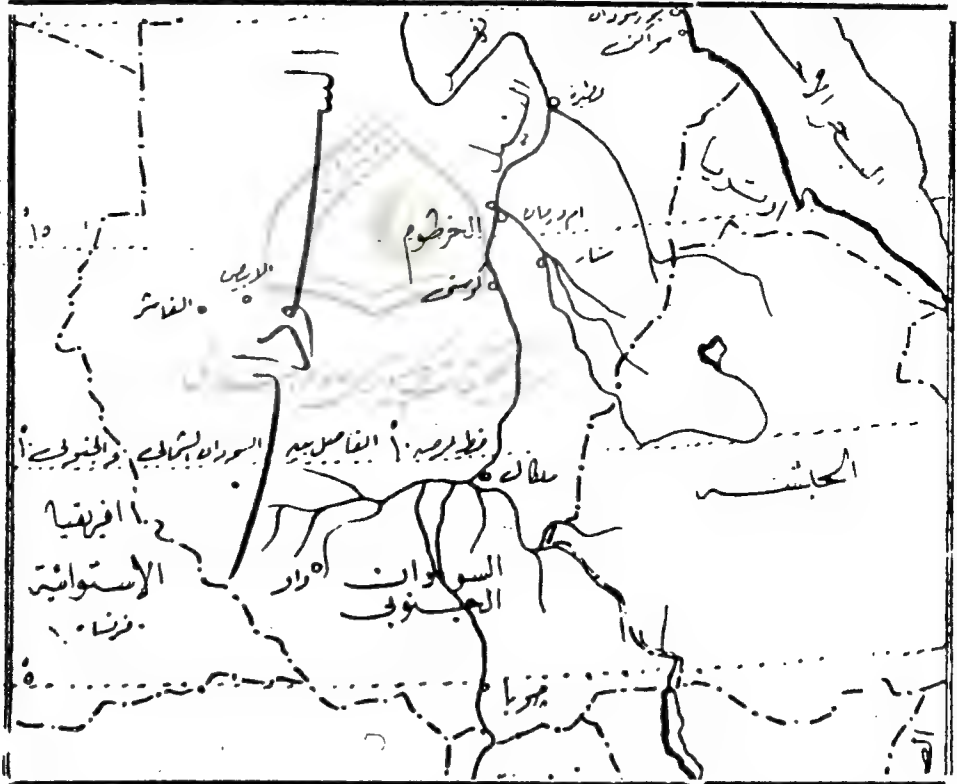
السُّورَةُ الْمُسْلِمِ

للأستاذ محمد الخير عبد القادر

(१)

السودان الجنوبي :

وقصة السودان الجنوبي هي قصة الاستعمار في أبشع صوره . فما أن توطدت أقدام الاستثمار في السودان الشمالى حتى ضرب الإنجليز نطقاً حديدياً حول السودان الجنوبي وهو المنطقة التى تقع جنوب خط عرض ١٠ وتتاخم يوغندا والسكنفو البليجيكية في الجنوب ويبلغ عدد سكان السودان



الجنوبي المليونين لنسمة وأغليبتهم من الزوج الذين لم تبلغهم رسالة الإسلام ولم يتسرب إليهم الدم العربي واللغة العربية ولعل هذه العوامل هي التي شجعت دولة الحكم الثنائي على المضي في تنفيذ سياستها الخاصة بفصل السودان الشمال عن السودان الجنوبي . فهؤلاء الجنوبيون ما زالوا يعيشون معيشة بدائية يقتاتون بثمار الأشجار ويلبسون أوراقها أو يسرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ويتحدثون لغاتهم المحلية ويسكنون الأكواخ المتواضعة ويعيشون على الصيد وتربية المواشي في بعض المناطق وهم وثنيون لم ينتشر الإسلام بينهم لأن منطقتهم ظلت مقفلة نصف قرن في وجه إخوانهم الشماليين المسلمين فلا يستطيع السوداني المسلم أن ينتقل من السودان الشمال إلى السودان الجنوبي إلا بترخيص من السلطات الحاكمة يحصل عليه بعد أن يتعهد بعدم مزاوله أى نشاط تبشيري يقصد

منه نشر الإسلام في الجنوب بل ومحظر عليه أن يؤدي شعائره الإسلامية على مرأى من أهل الجنوب الوثنيين . ولذلك كان أثر السودانيين الشماليين ضعيفاً في الجنوب الذي استأثرت به الحكومة الإنجليزية وأطلقت العنان لمفتشيها الإنجليز في إدارة المديرية الجنوبية كما أطلقت يد الإرساليات التبشيرية المسيحية في بناء الكنائس والمدارس التبشيرية التي تلقن أبناء الجنوب الأبرياء اللغة الإنجليزية ومبادئ الدين المسيحي . أما اللغة العربية فلم يسمح بإدخالها في مدارس الجنوب إلا بعد عام ١٩٤٦ . ويقوم نظام الإدارة في الجنوب على المفتشين الإنجليز المتطهرين ويأتمر بأمرهم الزعماء ورؤساء القبائل السذج من الجنوبيين . والمفتش في الجنوب هو الحاكم الإداري وهو الذي يتولى القضاء وتحويل له سلطات غير محدودة وتقوم إلى جانبه محاكم رؤساء العشائر التي تحكم بناء على قانون عرفي يستند إلى العادات البالية . ومنذ عام سنة ١٩٢٤ ألغيت جميع المحاكم الشرعية التي كانت في الجنوب وكانت تبلغ العشرة عدداً .

أما الإرساليات التبشيرية فتمثل كثيراً من الجفسيات والمذاهب المسيحية فمنها الكاثوليكية والبروتستانتية والإنجليزية والأمريكية وغيرها . وقد تغلغلت هذه الإرساليات في القرى والأدغال وتقدمها حكومة السودان بالمعونة المالية والفنية . وقد ترك أمر التعليم في الجنوب للإرساليات لتربي أبناء الجنوبيين التربية التي تتفق وأهداف الاستعمار ، فتربهم على الديانة المسيحية واللغة الإنجليزية وكرامية السوداني الشماليين ويقترن بهذه التربية تنفير الأطفال الجنوبيين من إخوانهم الشماليين ويلقون في روع الجنوبيين أن السوداني الشماليين ليسوا سوى تجار للرقيق يرقبون الفرصة في كل حين لافتك بالجنوبيين لولا حماية الإنجليز لهم ! والغريب أن حكومة السودان تعد الإرساليات التبشيرية في الجنوب بالمال الذي يقطع من دافع الضرائب المسلم في السودان الشمالي .

وتحت ضغط الرأي العام الشمالي اضطرت الحكومة إلى إباحة الاتصال بالسودان الجنوبي وسمحت بتأسيس مدرسة ابتدائية تخضع لوزارة المعارف السودانية فأنشئت مدرسة عطار بالقرب من ملكال كما أنشئت مدرسة ثانوية صغرى في توريث على غرار المدارس الثانوية في السودان الشمالي وعلى الرغم من أن الإرساليات التبشيرية المسيحية انفردت بالسودان الجنوبي مايقرب من نصف قرن فإنها فشلت في تحويل الجنوبيين إلى المسيحية وإن كانت قد نجحت في إيفار صدور بعضهم على إخوانهم المسلمين في السودان الشمالي وإن نسبة الذين اعتنقوا المسيحية من أهل الجنوب لاتزيد على ١٪ .

هذا وقد سمحت السلطات أيضاً بالتبشير الإسلامي في الجنوب وفي منطقة حيال النوبة في جنوبي مديرية كردفان وقد اعتنق الإسلام في الشهور القليلة الماضية نحو سبعة آلاف من النوبة الوثنيين في جنوبي مديرية كردفان . ولعل في هذه النتيجة مايبشر بمستقبل باهر للتبشير الإسلامي في السودان الجنوبي إذا ما اضطلعت بهذه المهمة الخطيرة هيئة إسلامية لها من الإمكانيات المادية والفنية والعلمية ما يؤهلها لأداء رسالتها السامية .

وإن الباحث ليتساءل عن البواعث التي تحدد بحكومة السودان الإنجليزية إلى انتهاج سياسة فصل السودان الجنوبي عن السودان الشمالي فلا يجد إجابة على هذا التساؤل غير أن السودان الجنوبي هو أغنى أجزاء السودان في الثروة النباتية التي تتمثل في أخشاب التيك والماهوجن والفواكه المدارية بأنواعها المختلفة ولعل هناك ثروات معدنية لم يكشف عنها بعد . يضاف إلى ذلك اعتدال المناخ بسبب غزارة الأمطار وطول فترة هطولها مما يلائم السادة الإنجليز . ولعل أملا عذبا يداعب الإنجليز في إمكان ضم السودان الجنوبي إلى يوغندا ومستعمرات أفريقيا الوسطى لتكوين امبراطورية بريطانية جديدة غنية بثرواتها ومواردها التي لم تستثمر بعد !

في أفق العالم الإسلامي

جمهورية العراق

قلنا في العدد الأول من السنة الأولى من « المسلمون » ديسمبر سنة ١٩٥١ ، وكان ذلك حين ألفت الحكومة المصرية معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ :

« ... وأخيراً أقدمت الحكومة المصرية على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ ، وهي خطوة وإن جاءت متأخرة إلا أنها اتجاه سليم في علاج قضية وادي النيل على أن يكون معروفاً أن هذا الإلغاء بدء واستفتاح ، وأن وراءه تبعات ثقيلة وجهاداً مضنياً ، فإن الإنجليز مقلوبون على حرب يمدون عدتها ، وإن يخرجهم من مصر والسودان ورقة مكتوبة ولاخطبة بليغة فإنهم أعرف بمصالحهم وأعلم بما وراء الكتب والخطب ، واليوم الذي يغادرون فيه هذه البلاد هو اليوم الذي يشمون فيه رائحة الجد . ويتحققون من أن بقاءهم لن يفيد شيئاً مما يدبرون ، ولا يغدو الثمن الذي سيدفعون ، فإن القاعدة العسكرية شرطها الأمن والاستقرار ، والسلامة من الرسميين الأهليين على السواء ، ولهذا فإن قيمة خطوة الحكومة المصرية بإلغاء المعاهدة محدودة بخطواتها بعد ذلك وبالعدة التي أعدتها للامر وتطوراته . »

ثم قلنا في العدد الرابع من السنة الأولى : مارس سنة ١٩٥٢ :

« ... أما كلمتنا الثانية إلى شعب وادي النيل فهي : أن يعد نفسه لجهاد طويل ، وأن يدرك المجاهدون منه أن أخطر ما يعانيه الميدان هو خلوه من القاعدة الثابتة والخطوة الواضحة ، وأنه مالم يفهم العاملون : أين هم ، ومن معهم ، وماذا أمامهم أو وراءهم ، ويواجهوا الموقف بجرأة قد تؤلم ، وصبر قد يطول ، فإن الواقع سيرد عليهم رداً قاسياً . إن الأزمة أزمة أخلاق في الصغير والكبير . والإنجليز ذوو فن عتيق في اكتشاف ذوى الاستعداد للأمراض الشتى ... فالحاجة السياسية الآن هي حاجتنا إلى جيل يستعصى على الرمس والمدوى . وإعدادة والسهر عليه هو العمل السياسي المستقيم . »

ثم قلنا في العدد الخامس : أبريل ١٩٥٢ فقرة أعجبنا من رسالة بعث بها فضيلة الأستاذ حسن المصطفى المرشد العام للاخوان المسلمين إلى رئيس وزراء مصر جاء فيها :

« أما الموقف الخارجي فن البداهة بمكان أن الإنجليز لا يستجيبون لآمالنا الوطنية ولا يفكرون في الجلاء لا بقدر ما تصيب أقدامهم من زلزلة واضطراب وما يتعرض له استقرارهم ومصالحهم المادية والاستراتيجية من خلل وإفلاق ، فتقبلها منا يا صاحب الدولة (حينذاك) نصيحة خالصة لم ننكل عن أدائها لكل من استنصحننا ممن حملوا هذه الأمانة قبلك . إن الكفاح وحده هو سبيل الجلاء والوحدة . الكفاح الذي يفتزم الحاكم والمحكوم ويتلاق تحت ألوته الكبير والصغير ، ويبدو فيه الزعم والإصرار على تحقيق الأهداف ، وتتوحد الأهبة لاستمراره وشموله بحشد الكفايات العلمية والاقتصادية والسياسية والحربية والأخلاقية فوق ذلك لتنظيم المقاطعة ودوام الناجزة بما يزلزل الأرض تحت أقدام الفاسقين ويجعل أمامهم في الوادي خسارة يفرون منها ومفرماً لا يستطيعون الصبر عليه ... »

هذا ما قلناه ورددناه في تناولنا لقضية مصر ومتابعتها لأحداثها ، ولقلة يقيننا عن كل حديث جديد لا يسعنا إلا أن نبدي ارتياحنا لموقف الحكومة المصرية الأخير في إصرارها على الحق ورفضها المساومة ومضيعة الوقت ، وإلا الضراعة إلى الله أن يلمهم الرشيد ويأخذ بيدها في هذه المفازة الوعرة ، وإلا التذكير بأن سلامة الصفوف في الداخل وتركيز الجهد الأكبر في إقرار حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية على أساس سليم هما الأسلوب العملي الذي يؤتي الكفاح معه ثمرته ويبلغ مده .

زيارة دالاس :

يزور مصر هذه الأيام مستر جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية ، وقد قامت صحافة العالم العربي وقعدت لهذه الزيارة ، وتسكهنه بأهدافها وما وراءها ، ونحن لا نذهب معها ولا نرى رأيها ، وقد كنا نستطيع أن نلتزم ظاهر الحكمة فنعرض على مستر دالاس حقوقنا بأسلوب هادئ حكيم ، ولكننا نؤثر الشك وسوء الظن ونرى ذلك عين الحكمة ، وواجب العرب والمسلمين . نرى ذلك لأمرين : أولهما أن دالاس قد درس قبل رحلته عن حقوق العرب من سفرائهم في واشنطن ما كان يكفي لتعبير به سياسة أمريكا على الأقل في قضيتي تونس وفلسطين ، ولن تزيد معلوماته في ذلك إلا بقدر زيادتها من بن غوريون في مقابلتهما المزمعة في القدس !

والأمر الثاني أنه أصبح من العبث أن تدعونا أمريكا أو إنجلترا أو روسيا إلى تحديد علاقاتنا في نور المثل الأعلى فإن حضارة هؤلاء جميعاً هي حضارة الشهوات العارمة على حساب كل خلق كريم . إن تحديد علاقاتنا هو تحديد مصالحنا ومصالحهم ... وهم يعرفون مصالحهم ، غير المشروع منها قبل المشروع ، فهل نعرف نحن مصالحنا ؟ ذلك ما نشك فيه ، وذلك وحده هو ما يجب التفكير فيه ، وما يجب التفكير منه مجرداً من كل اعتبار آخر غير المصلحة ، مع الشك اللازم في سوء النية المحتمل من أمريكا ، وليس من حق دالاس أن يطالنا بغير ذلك ، فتاريخ بلده لا يشهد له ، وعليه هو بالعمل لا الوعود التي كفرننا بها ، أن يثبت التغيير المزعوم في نية بلاده نحو العرب والمسلمين .

بقي أن نذكر أموراً محددة واضحة للتذكرة .

(١) لاصالح مع إسرائيل وكل اتجاه في سبيل ذلك سيرتد إلى صدور أصحابه وبالا ودماراً من الأمة التي بدأت تفي وتفهم !

(٢) مكافأة الشرور الاجتماعية التي يهتم بها دالاس في بلادنا — كما يقول هو ! أي الشيوعية لانكون بالوعود الفارغة ، ولا نجحهم إسلام أو ربيع إسلام ، فإن ذلك تخدير لم يعد يعني شيئاً ، وكذب على الناس لم يعد يجوز عليهم ، وعلى أمريكا وإنجلترا أن ترافعا أيديهما عن الحركات الإسلامية الواعية التي أصبحت لا يفيد اضطهادها أو الدس عليها في الظلام .

(٣) ليس من حق سياسة العرب أن يزجوا بأمتهم في حرب لاناقة لها فيها ولا جل . وكل محاولة لتوريطها يجب أن تفشل ، وهي فيها — إن نجحت — مغلوقة على أمرها ولا يفيد الضغط شيئاً في سلامة القواعد العسكرية في الحروب ! ! واستر دالاس مع ذلك تحيئاتنا

في أندونيسيا :

فوجئنا بنياً وفاة السيد عبد الواحد هاشم رئيس حزب نهضة العلماء بأندونيسيا أثر حادث أليم . تقمده الله بواسع رحمته وعوض المسلمين عنه خير عوض .

أخبار متفرقة

أرسل فضيلة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين البرقية التالية إلى اللواء الرئيس محمد نجيب : « موقف عظيم نؤيدكم فيه فالأمة كلها لن تتخلى عن شيء من حقوقها وهي ماضية في سبيل استقلالها فسيروا في هذا السبيل والله معنا وهو ولي التوفيق » .

● أذاعت الحكومة السويسرية بياناً رسمياً جاء فيه أن البوليس اكتشف في شهر فبراير شبكة للجانوسية تعمل لحساب إسرائيل ضد مصر والدول العربية ، وأنه قد أطلق سراح الأشخاص الأربعة الذين قبض عليهم في ذلك الوقت لأن المتهمين الرئيسيين كانوا قد غادروا البلاد ! .

● أقامت (الجالية البريطانية) في بغداد صلاة خاصة في كنيسة القديس جورج بمناسبة تتويج الملك فيصل الثاني ، وأوفد الوصي على العرش مندوباً عنه كما حضرها كثير من المشايخ المسلمين وكان الذي يقوم بتلاوة آي الذكر الحكيم في الكنيسة السفير البريطاني في العراق .

● في نأبأ من الباكستان من مصادر علمية يفيد أن الباكستان ستسحب قريباً من (الكومونولث) البريطاني وأول نتيجة لذلك هو عدم الاعتراف بالملكة الزايث ملكة بريطانيا رئيسة لدولة الباكستان ومن المتوقع أن يعلن هذا الانسحاب في الشهر القادم بعد عودة السيد محمد علي رئيس وزراء الباكستان من حفلات تتويج الملكة الزايث ، وقد اتخذت الباكستان قرارها هذا نظراً لشعور العداء الشديد نحو بريطانيا في الباكستان .

● دعا المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في (ميدان) بأندونيسيا إلى إنشاء مجموعة شعوب إسلامية (كومونولث) ليتسنى لأعضائه العمل في تعاون ضمن هيئة مرننة وتطبيق الشريعة الإسلامية بعد ما ظهر من اشتداد رغبة جميع الأقطار الإسلامية في تطبيق الشريعة على القوانين المعمول بها ... ومن بين القرارات التي اتخذها المؤتمر قرار يحتم وضع قوانين للرعاية المشتركة بين جميع المسلمين في العالم الإسلامي بحيث تتمكن الدول الإسلامية أيضاً من منح الرعاية للمسلمين المقيمين في أقطار غير إسلامية ...

● قال بيرل لوكر الرئيس المساعد للوكالة (اليهودية العالمية) عند وصوله إلى سيدني بأستراليا : إن إسرائيل ترغب في زيادة عدد سكانها من مليون وسبعمائة ألف نسمة إلى أربعة ملايين على الأقل ثم قال : لقد حضرت لأطلب إلى اليهود أن لا يخلوا بما في جيوبهم على إسرائيل وأرغب أن يهاجر يهود أستراليا إلى إسرائيل ...

● تقول برقية لروتر أن متحدثاً بلسان وزارة الخارجية البريطانية ذكر أن الأردن طلب إلى بريطانيا أن تستخدم نفوذها لمنع إسرائيل من شن هجمات على أراضيه وقد جاء في المذكرة الأردنية وصف لأحداث القدس التي وقعت أخيراً ويعتقد المراقبون الدبلوماسيون أن لندن لن ترسل رداً على هذه المذكرة قبل استشارة حكومتها الولايات المتحدة وفرنسا وذلك لاتفاق ثم بين الدول الثلاث (فرنسا وأمريكا وإنكلترا) على أنه في حالة وقوع نزاع بين البلدين تعمل بريطانيا والأردن معاً على تسوية النزاع (بالطرق السلمية !) وعلى ذلك قدمت بريطانيا (احتجاجاً) إلى إسرائيل على أحداث شهر يناير ...

● تم اجتماع بين كل من وزير الدولة البريطاني سلوين لويدي واليا هو ابالات سفير إسرائيل في لندن وقد ذكرت الدوائر الدبلوماسية أن الاجتماع تركز في بحث المفاوضات المصرية البريطانية التي تدور بشأن مسألة قاعدة قناة السويس لأن إسرائيل كما يقول المراقبون تشعر بأن مصر الحامية البريطانية في قناة السويس أمر على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لسلامتها ... ! .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات هذا العدد

صفحة	
١	هذا القرآن لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي
٤	قصص القرآن : نوح عليه السلام للأستاذ البهي الحولي
١٠	من علوم السنة لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا
١٢	الصوم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة
٢٢	الدستور الإسلامي للأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي
٣٣	العصية الإسلامية فوق العصيات لأبي نعمان المهاجر
٣٦	العقبات في طريقنا للإمام الشهيد حسن البنا
٣٨	مجتمع عالمي للأستاذ سيد قطب
٤٤	خاطرة : في مسجد قرطبة للتحرير
٤٥	من فقه القرآن والسنة للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
٥٠	مذكرات الأمير عبد الكريم الريني
٥٢	أم أيمن للتحرير
٥٣	التشريع الجنائي الإسلامي للأستاذ عبد القادر عوده
٥٧	نهاية الخلافة العثمانية للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس
٦٥	هل علمت ؟
٦٦	حول السياسات الاقتصادية للأستاذ عيسى عبيد إبراهيم
٧٢	سجرات فكر للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
٧٥	شفاعة الإمام « قصة تمثيلية » للأستاذ علي أحمد باكثير
٨١	باب الكتب : نقد وتبرير
٨٤	سوموا تصحوا الأمير الای الدكتور أحمد الناقه
٨٩	إن لبدنك عليك حقاً
٩٠	مع العارفين :
٩٥	مد الإسلام وجزره « شعر » للشاعر الأوردي الأستاذ الطاف حسين حالي
٩٧	شاطيء التوبة « شعر » للأستاذ محمود حسن إسماعيل
٩٩	السودان المسلم للأستاذ محمد الحبر عبد القادر
١٠١	في أفق العالم الإسلامي للتحرير
١٠٤	القهرس